TIGHT BINDING BOOK



من روائع هاردى وجوركى وشيلر

ترجمة

نظمي خليل

طبع بمطبعة المجلة الجديدة
الفجالة : مصر

*

مقدمة

— ماذا تعمل الآن ؟

— أخرج مجموعة من قصص الغرب.

— لمن ؟

— لتوماس هاردى وماكسيم جوركى و . . . .

— ها . ها . ما أبعد الفرق بين الاثنين .

— أجل . ولكنى أعنى بالأثر الفنى ولا أعنى بالنقد .

هكذا بدأ الحديث بين مستر « سكيف » أستاذ الأدب الانجليزى بالجامعة المصرية وبينى . ولا شك أن كتابا كهذا يجمع بين قصص مختلفة لمؤلفين مختلفين يكون هدفا للنقد . فقد يعجب الناقد للجمع بين هاردى الفليسوف العميق المتشائم الذى يترك مصائر أبطاله فى أيدى القدر ، وبين جوركى الداعية الروسى الذى وقف قلمه وفكره على تأييد الشيوعية والنهوض بالعمال . وقد يكون عجب الناقد أشد إذ يرى الكتاب قد خلا من قصص معينة كان

ينتظر أن يقرأها فيه . وأكبر الظن أنك لن تجد اثنين يتفقان على طريق واحد فى الاختيار أو يقران أسلوبا معينا فى التصنيف . فلا مجال للاعتذار هنا إن كان ثمت ما يأخذه على القارىء وهو ينزل من روحانية « شيلر » إلى أشواك الحياة التى يصورهـا « جوركى » و« تشيرلكوف » :

إلا أن هذه القصص على اختلاف مصادرها وتباين مراميها جديرة بأن ترضى بعض رغبات الانسان المتعددة فهى تكشف له عن أشياء كان يحس بها ولكنه لا يعرف سبيل الافصاح عنها . وهى فوق هذا قد تغرى الكثيرين من القراء على محاكاتها والاهتداء بها لأن فى كتابة القصة أقوى تدريب لا لأداة التعبير فحسب بل لقوتى التخيل والتفكير معا . وهذا هو ما يميز القصة عن المقال .

وسيلمس القارىء لهذه القصص مقدرة فنية عظيمة فى المزج بين حقائق الحيـاة وخيالات الانسان فليس المهم فى القصة هو حوادثها بل روح كاتبها وقدرته على التصوير وتهيئة الجو لهـا . فقد يستطيع القصاص الماهر أن يجعل قلبك يخفق وهو يصف فتاة خادمة تلقى خطابا فى صندوق البريد . وقد يستطيع آخر أن يستدر الدموع من عينيك وهو يصف لك ثنيات ثوب مطوى . ولكن

هذا وقف على القارىء وما يشعر به من التجاوب بينه وبين الكاتب وبين جو القصة والجو الذى يعيش فيه . فقد وجد « دارون » فى حديقته الصغيرة من عالم الخيال « الرومانتيك » ما لم يجده « ستانلى » فى مجاهل أفريقيا . ؟

نظمى خليل



الفهرست

الإهداء

إلى الرجل الذى علمنى الكثير
وترك فى نفسى أقوى أثر
إلى الأستاذ الدكتور
عبد العزيز القوصى .

*

المرأة الشــاعرة

القصصي الانجليزي توماس هاردي

انتهى « وليم مارشمل » من البحث عن مسكنــه الصيفى فى إقليم « سولنتس » فى جنوب « ويسكس » ثم عاد إلى الفنــدق حيث كانت زوجه وأطفاله فى انتظاره بعد أن قضوا سحابة اليوم فى اللهو واللعب . وكانت الأم منصرفة إلى قراءة الشعر كعادتها ، فلم تــكد تراه حتى ألقت بالــكتاب جانبــا وأفاقت من ذلك الحلم الجميل الذى كانت غارقة فيه وقالت : «إنى أود أن تــكون قد وفقت هذه المرة إلى منزل ملائم فقد ضقت ذرعا من طول مكثنا فى هذا الفندق . فأجابها زوجها : إن المدينة مزدحمة والغرف ضيقة وأخشى ألا نجد فيها ما نريد . هل لك أن تصحبينى إلى ذلك المنزل الذى رأيته اليوم ؟ ثم خرجا معا تاركين أطفالهما الثلاثة فى رعاية المربية

لقد كان هــذان الزوجان مختلفــين فى المزاج والمشرب ،

فقد قضى الزوج حياته فى صناعة الأسلحة و نشأ فى جو صناعى خالص ، بعيداً عن جو العاطفة والخيال الذى عاشت فيه زوجه الشاعرة ؛ فلم يكن غريباً من امرأة رقيقة خيالية مثل « إلا » ألا ترتاح إلى أعمال رجل « كمارشمل » . إنها ليست عدوة للشعر فحسب ، بل وللحياة أيضاً . فكانت إذا ماخلت إلى نفسها تفكر فى ذلك الزوج وفى ثروته الطائلة ، وفى قيمة هذه الثروة لها . وكانت فى كل مرة تعود بعد ذلك التفكير الطويل بالألم والاشفاق على هذا الزوج الذى لم يعرف قط ذلك الجو الشعرى الجميل ، جو العواطف والخيال الذى كانت تطلق فيه مشاعرها المكبوته وأحلامها العذبة تحلق فى ساعات خلوتها وهدوئها

سار الزوجان حتى أتيا منزلا صغيراً يشرف على البحر ، وقد أحاطت به حديقة شجراء فينانة ، فاستقبلتهما صاحبة المنزل وأخذت تحدثهما عن ظروفها السيئة وعن موت زوجها المفاجىء ، وعن وسائل الراحة التى تعدها لكل من يقيم فى منزلها . فأعجبت مسز مارشمل بالمنزل ، ولكنها أرادت استئجار كل الغرف ، فخاب أمل المرأة فى كسب هؤلاء الضيوف ، إذ كان هناك غرفتان يشغلهما شاب رقيق الجانب طيب القلب كريم الخلق لاتود أن يتركها ،

ولـكنها تمتمت قائلة : لا بأس ! ربما يخلى لـكما هاتين الغرفتين بضعة أسابيع . وقبل أن يفرغ الضيفان من تناول الشاى أخبرتهما السيدة أن صاحبها الشاب قد رضى أن يخلى لهما الغرفتين مدة ثلاثة أسابيع . فقال السيد مارشمل :

« إنه شاب كريم حقاً ، ولـكنا لا نريد أن نزعجه فى مسكنه »

فأجابته صاحبة المنزل قائلة : لا إزعاج ولا إقلاق فهو شاب غريب الأطوار تراه دائماً حالماً مطرقاً حزيناً يحب الوحدة ويتعشق الهدوء ، وهو يحرص على البقاء هنا ـ فى فصل الربيع الباسم حيث لا أنيس له إلا البحر ، أما الآن فانه ذاهب إلى إحـدى الجزر القريبة كما يفعل كل عام تبديلا للهواء . وفى اليوم التالى كانت أسرة السيد مارشمل تقيم فى ذلك المنزل الجديد . ثم مضى الرجل إلى البحر يرتاض على شاطئه الجميل ، وانصرف الأطفال إلى اللعب فى الخلاء ، وبقيت « إلا » وحيدة تلهو بما عسى أن تجده من كتب وآثار فى غرفة ذلك الشاب . فقد رأت رفوفاً من الـكتب الغريبة النادرة قد تـكدس بعضها فوق بعض فى نظام خاص يدل على أن صاحبها لم يفـكر قط فى أن يداً غريبة ستمتد إليها . فقالت :

سأتخذ هذه الغرفة لنفسى إذ يظهر لى أن صاحبها كلف باقتناء

الكتب . هل يمكننى أن أقرأ بعضاً منها يامسز هوبر ؟

— نعم ، إنه أديب ناشىء وشاعر واعد ، له دخل يسير يكفيه تكاليف الحياة ، ولكنه لايشق له طريقاً فى المجتمع

— أهو شاعر حقاً ؟ لم أعرف هذا قبل الآن . ثم تناولت كتاباً فرأت اسمه فى الصفحة الأولى فصاحت متعجبة: «ياللمصادفة! إنى أعرف اسمه حق المعرفة : « روبرت ترو » كذلك أعرف أشعاره . أهذهى غرفته ؟ وهل هو حقاً الذىأخرجناه منها؟

ثم أخذت تفكر فى ذلك الاتفاق الغريب . لقد كان والدها أحد رجال الادب البارزين فنظمت فى الأيام الأخيرة بعض القصائد أودعتها عواطفها الحزينة وأسفها على تلك الحياة الأولى ، حياة الحلم والزهر ، حياة المرح والشباب التى ضاعت جميعها فى ذلك الجو المكتئب المكفهر الذى أصبحت تشعر فيه أنها آلة للنسل وأداة للتسلية

وتشاء الظروف أن يقترن اسم هذه السيدة باسم هذا الشاعر الشاب فى إحدى المجلات الكبرى عقب فاجعة مؤلمة اهتزت لها عواطفها الشاعرة فأوحت إليها فى وقت واحد بقصيدتين متحدتين فى الروح والعاطفة كأنهما فاضتا من نبع واحد ، حتى أن مدير المجلة

قد نشرها فى صفحة واحدة متعجباً لذلك الاتفاق الغريب

ومنذ ذلك الوقت أخذت « إلا » أو « جون إيفى » كما كانت تسمى نفسها تهتم بكل ماينشر فى الصحف بامضاء روبرت ترو . لقد اتخذت ذلك الاسم لترضى رغبة كامنة فى نفسها ، وحتى لا يرتاب الناس فى صدق إيحاءاتها إذا علموا أن هـذه العواطف الجياشـة والمشاعر القوية تفيض من قلب امرأة عادية هى زوج لأحد تجار الأسلحة وأم لثلاثة أطفال .

أما أشعار روبرت ترو فلم تكن تحمل طابع الشعر الحديث ، بل كانت فرجة لقلب مكلوم بائس قد ضاق بالحياة أو ضاقت هى به فلم يعد يميز فيها بين أخس الطبائع البشرية وبين أرقاها . فكانت تلك السيدة إذاما قرأت أشعاره تشعر بخيبة أليمة تحز فى نفسها لأنها لا تستطيع أن تحلق فى ذلك الجو السامى الذى يضرب فيه بجناحيه القويين .

ثم مضت بضعـة أشهر نشر خلالها روبرت أول دواوينـه الشعرية فـكان باكورة طيبة استقبلها الشعب بشىء من التقدير مكنه من أن يكسب نفقات الطبع ، فأغرى هذا النجاح المتواضع جون إيفى على أن تجمـع مقطوعاتها الشعرية المتنـاثرة

فى كتاب واحد مؤملة فى أن تصادف بعض ماظفر به روبرت من الاقبال والتشجيم ، ولكنها عادت بصفقة المغبون ، فلم يتصد أحد لكتابها بالنقد أو التقريظ ، بل لم يفكر فى أحد أن يعلق عليه أو أن يشير إليه ولو فى إحدى الصحف اليومية .

ولكنهالم تفكر كثيراً فيماأصابها ، فسرعان ماحطت بهاأفكارها من عالم الشعر والأدب الى عالم الحياة والمنزل ، فقد أحست بجنين يضطرب فى أحشائها فانصرفت عن الأدب وتأهبت لاستقبال ذلك الضيف الجديد .

جالت هذه الأفكار فى خاطر تلك المرأة التى وجدت نفسها أخيراً وعلى غير انتظار فى غرفة ذلك الشاب الذى ارتبطت به برباط روحى وثيق ، فنهضت عن كرسيها وأخذت تجول فى أنحاء الغرفة تتفرس فى كل ما تراه ، ثم دعت مسز هوبر تستفسر منها عن ذلك الشاعر الشاب فقالت :

— وهل يقيم هنا منذ زمن طويل ؟

— نعم . منذ عامين تقريباً وهو يحتفظ بهاتين الغرفتين حتى فى أيام سفره ، فان جو هذا المكان يلائم صدره . وهو يقضى وقته

فى القراءة والكتابة لا يقابل أحداً ، وهو مع ذلك طيب القلب حلو الحديث يتمنى كل من يعرفه أن يصادقه . إنك لا تصادفين أمثال هذا الشاب كل يوم

— فى طيبة القلب ورقة المشاعر ! !

— نعم . حتى أننى كثيراً ما أغريه على الخروج من عزلته ، فيقوم برحلات قصيرة إلى باريس أو النرويج ، ثم يعود يشكرنى لأنه ذاق طعم السعادة بسببي

إنه رقيق الاحساس لا شك

— أجل وإن بدا فى بعض الاحيان غريباً ، فقد حدث مرة بعد أن انتهى من نظم إحدى قصائده فى الهزيع الأخير من الليل أن ظل بقية الليل يقطع الغرفة جيئة وذهوباً ، فأطار النوم من عينى ولكنى مع ذلك لم أضق به ولم أغضبه

كان هذا فاتحة الحديث عن ذلك الاديب الواعد الذى أخذ يصعد مدارج الشهرة فى وثبات واسعة موفقة .

وفى ذات يوم جاءتها صاحبة المنزل تلفت نظرها الى شىء لم تنتبه إليه وهو آثار للكتابة بالقلم الرصاص قد نقشت على ورق الحائط خلف الستائر بالقرب من مكان الرأس ، فلم تستطع مسز

مارشمل أن تحبس شعور الدهشة والرغبة ، فاندفعت الى الغرفة ، وانحنت برأسها الجميل حتى كادت تلمس الجدار . ثم أخذت مسز هوبر تشرح لها فى أسلوب المرأة المتمكنة من علمها الواقفة على جميع ما يحيط بها فقالت :

إن هذه الكلمات هى خوطره الاولى التى تهفو بعقله وهو نائم فى فراشه ينقشها هنا خوفا من أن ينساها . لقد رأيت كثيراً من هذه الآثار منشورة بعد ذلك فى الصحف ولكن هذه الأشعار لم تنشر بعد

فاحمر وجهها دون أن تدرك السبب وشعرت برغبة قوية خفية فى أن تخلو الى نفسها . ولم تكد المرأة تنصرف الى قضاء حاجة لها حتى أسرعت مسز مارشمل الى غرفة الشاعر وأخذت تتلو هـــذه الاشعار فى صوت موسيقى جميل حتى سكرت أذناها وشالت بها أفكارها الى السموات العلى

كانت الطبيعة فى ذلك اليوم غاضبة ثائرة،فلم يرد مستر مارشمل أن تصاحبه الى البحر الهائج المزبد . أما هى فقد أخذت تضيق بتلك الحياة الرتيبة الثابتة ، وتنفر من ذلك الجو المألوف الثقيل ، إذ لم يعد ركوب البحر ولا السير على الشاطىء متأبطة ذراع زوجها

شيئاً بجانب تلك اللذة القوية التى أخذت تشعر بها كلما أوت الى غرفة ذلك الشاعر المجهول .

لقد قرأت أشعاره كلها حتى استظهرتها، ثم حاولت أن تعارضها ولكنها عادت ودموع الفشل تترقرق فى عينيها . وهكذا عاشت تلك المرأة المسكينة مغمورة بتلك المشاعر المعذبة التى أوحت بها اليها غرفة ذلك الشاب الذى لم تره قط

لم يعد قلب تلك المرأة يغنى على أوتار الحب الاول ، ولم يعد زوجها ينظر اليها أكثر من رفيق أو صديق ، ولكن قلبها كان لا يزال عامرا بالحب ، جياشاً بالعواطف التى تتطلب غذاء وإلا ذبلت وماتت وأخيرا وجدت ذلك الغذاء فى ذلك الاتفاق الذى لم تكن تحلم به

عثر الاطفال يوما على بعض ملابس ذلك الشاعر فأسرعت مسز هوبر ووضعتها فى الصندوق كما كانت . أما الأم فقد شعرت بشىء غريب كتمته فى نفسها حتى تحين الفرصة،وسرعان ما حانت، فقد خرجت مسز هوبر إلى قضاء بعض حاجاتها ، وخرج الأطفال يلعبون كعاتهم كل يوم ، فأسرعت الام الى الصندوق وأخرجت منه حلة جميلة فارتدتها ، ووضعت قبعته العالية فوق رأسها.ثم أخذت

تخطر فى مشيتها تسأل نفسها : ألا توحى لى هذه الملابس بما أوحت اليه من روائع الفن ؟ لقد طالما خفق قلبه تحت هذه السترة ، وطالما تفتح ذهنه الجبار عن روائع الشعر وفوقه هذه القبعة ، ثم ما لبثت أن شعرت بضعفها بجانبه فعادت والدموع تكاد تطفر من عينيها ، ولكنها لم تكد تصل الى الصندوق حتى رأت زوجها أمامها فصاح.
ما هذا الجنون ؟

فاحمر وجهها خجلا وأسرعت الى خلعها ، ثم قالت لقد رأيتها مصادفة هنا فارتديتها لأسرى عن نفسى ألم الوحدة . ماذا أعمل مادمت بعيداً عنى دائما ؟

بعيداً دائما ؟ حسن ! . . .

فلما جاء الليل ذهبت الى مسز هوبر تغذى شعورها بالحديث عن ذلك الشاعر البعيد . فقالت صاحبة المنزل . إنك تلذين كثيرا لسماع قصته . لقد أرسل الى خطابا اليوم يخبرنى أنه سيأتى غدا لحاجته الى بعض الكتب

— هل يمكننى أن أبقى هنا عند مجيئه ؟

— نعم يمكنك أن تقابليه إذا أردت ذلك

فشعرت بارتياح خفى عند سماعها هذا الكلام ومضت الى فراشها تفكر فى هذا اللقاء المرقوب

وفى صباح اليوم التالى قال لها زوجها . لقد كنت أفــكر يا (إلا) فيما حدثتنى عنه من أنى أتركـك وحيدة دون أنيس . قد تكونين على حق فى هذا ، ولـكن الجو اليوم صحو ، والبحر رهو ، والنسيم رخو ، فهل لك أن تصحبينى الى نزهة قصيرة ؟ ولاول مرة شعرت (إلا) بعدم رغبتها فى تلبية هذا الطلب ، ولـكنها لم تعلن رفضها . ثم اقتربت ساعة الخروج فأخذت تستعد لها ، ولـكنها ما لبثت أن توقفت عن المضى فى اللبس ، فان الرغبة فى لقاء ذلك الشاعر المجهول كانت قـد جرفت بعيداً سائر الرغبات الاخرى ، فقالت فى نفسها (إنى لاأستطيع الخروج الآن) وأخـبرت زوجها بذلك ، فمضى وحده

كان المنزل هادئاً فى ذلك اليوم ، فقد خرج الاطفال الى الخلاء يلعبون ويمرحون ولم تعـد تسمع إلا صوت أمواج البحر تداعب الشاطىء فرحة بذلك اليوم المشمس الجميل . لقد سمعت الباب يقرع ولـكنها لم تر أحدا ، فلما نفذ صبرها نادت مسز هوبر وسألتها عن الطارق ، فأجابتها . إنه أحـــد الأشخاص يسأل عن سكن . لقد نسيت أن أخبرك أن روبرت قد اعتذر عن المجىء اليوم لعـدم حاجته القوية الى الـكتب . فران الحزن على قلب (إلا) وبقيت

وقتاً طويلا نهباً لشتى الانفعالات حتى أنها لم تستطع أن تقرأ أغنيته الحزينة . (الارواح العديدة) إذ كان الحزن قد جفف ينابيع فرحها

— مسز هوبر . هل لديك صورة لـ . . . ذلك الشاب الذى يقطن هنا ؟

وكان الخجل قد عقد لسانها عن ذكر اسمه

— لماذا ؟ نعم . فى داخل ذلك الاطار الجميل المعلق فى غرفتك

— ليس هنا الا صورة للدوق والدوقة

— نعم . إنها فى داخل ذلك الاطار نفسه . لقد اشتريته خصيصاً لصورته ولكنه جاءنى قبل السفر وقال . « اخفى صورتى عن أعين هؤلاء الغرباء الذين سيقيمون هنا فانى لا أود أن يتطلعوا إلى صورتى » ولذلك أخفيت صورته مؤقتاً تحت صورة الدوق . يمكنك أن تريها إذا أردت فانه لا يغضب ، فلو أنه عرف أن الشخص الذى سيقيم فى غرفته امرأة جميلة جذابة مثلك لكان حرياً ألا يفكر فى إخفاء صورته

— وهل هو رشيق ؟

— إنه رشيق فى نظرى وإن لم يبد كذلك فى نظر بعض الناس . ولكنى أعتقد أنه شخص قوى يأسر كل من يراه ، ففى

عينيه بريق الذكاء ، وفى بدنه روح العبقرى الثائر

— كم يبلغ من العمر ؟

— إنه يكبرك بسبع سنوات . أى إنه حوالى الثانية والثلاثين

والحقيقة أن (إلا) كانت فوق الثلاثين وإن لم تظهر كذلك. لقد كانت قادمة على تلك المرحلة التى تعتقـــد فيها المرأة أن الحب الأخير أقوى من الحب الأول . وفى تلك اللحظة جاءها نبأ من زوجها يخبرها أنه سيقضى ليلته فى نزهة بحرية مع بعض أصدقائه . فقامت إلى المائدة وتناولت العشاء مع أطفالها ثم أمضوا جميعاً وقتاً على الشاطىء وهى لا تفكر إلا فى تلك الصورة المختبئة وكأنها تتوقع أمراً مخيفاً

ثم عادت إلى المنزل ذاهلة عن نفسها ولكنها لم تجرؤ على إخراج الصورة حتى نام الأطفـــال وشعرت بالوحدة والهدوء . ولكنها بالرغم من ذلك لم تستطع أن تدنو من الصورة حتى ترضى تلك الرغبة الدفينة فى نفسها ، فارتدت أنخر ثيابها وقامت إلى الاطار وأخرجت منه الصورة ووضعتها أمامها على المكتب . لقد كانت صورة قوية رائعة ، وكان الشاعر لابساً قبعة عالية تلقى ظلالا رقيقة على جبينه . أما العينان اللتان وصفتهما صاحبة المنزل فقد كانتا تشمان ألماً وبؤساً

نظرت إلى الصورة طويلا ثم تمتمت فى صوت هادىء رقيق:
« وهل أنت الذى كسف نوره القوى نورى هذه المدة الطويلة؟»
ثم غابت فى تفكير عميق حتى اغرورقت عيناها بالدموع ، ولمست شفتاها الصورة ، ثم ما لبثت أن ضحكت ضحكة عصبية ومسحت الدموع من مآقيها ، وأخذت تفكر فى نفسها كيف أن امرأة هى زوج لرجل وأم لأطفال ثلاثة تسمح لنفسها أن تنظر إلى شخص غريب فى مثل هذه الحالة المريبة؟

لا . إنه لم يكن غريباً . لقد عرفت أفكاره وعواطفه كما عرفت أفكارها وعواطفها ، فقد كانت نفس العواطف والأفكار التى كان يضطرب بها قلبها والتى تفقدتها فى زوجها فلم تجدها . « إنه أقرب الناس إلى نفسى وإن لم تقع عليه عينى » . ثم ألقت بالكتاب والصورة على منضدة صغيرة بجانب السرير وأخذت تستعيد بعض أشعاره الوجدانية ثم ما لبثت أن أمسكت الصورة فى يدها وأخذت تنظر فيها وهى نائمة ، ثم التفتت إلى الأشعار المكتوبة بالقلم الرصاص على الحائط . لقد كانت جملا وسطوراً كأنها مذكرات « شلى » . ثم شعرت أن أنفاسه الحارة القوية تصافح خديها وكأنها منبعثة من تلك الجدران التى طالما أحاطت برأسه كما تحيط برأسها الآن

لا بد أن يكون قد وضع يده هكذا وهو يمسك بالقلم . نعم .
إن الكتابة مائلة مما يدل على أن الكاتب قد مد ذراعه هكذا .« إن الصور أكثر حقيقة من الانسان فهى غذاء الأبدية » هذه هى الأفكار التى خطرت فى ذهنه فى سكون الليل العميق عندما انطلقت روحه فى سماء الفكر لا تخشى نقداً ولا تهاب إنساناً ، ولا شك أن هذه الكلمات قد كتبها فى عجلة على ضوء القمر الخافت أو نور المصباح الخابى أو بصيص الفجر الأدكن . ثم تدلى شعرها حيث كان يضع ذراعه وهو يسجل تلك الأفكار الشاردة

لقد كانت نائمة على شفتى الشاعر محاولة أن تتقمص روحه وتشم أنفاسه خلال ذرات الأثير

وبينما هى غارقة فى بحار هذه التأملات العذبة اللذيذة اذ سمعت وقع أقدام على السلم فلم تكد تصحو من أحلامها حتى رأت زوجها أمامها يقول : معـــذرة ، هل بك صداع ؟ أخشى أن أكون قد أزعجتك

فأخفت الصورة فى حركة غريزية سريعة وقالت : مابى من صداع . كيف جئت الآن ؟

فقال : خفت أن أتأخر إلى الغد الذى أعددت له برنامجاً آخر .

لقد تعبت اليوم ولكنى مضطر أن استيقظ الساعة السادسة . سوف لا أوقظك . فرفعت اليه عينيها بينما كانت يدها تمعن فى إخفـــاء الصورة تحت الوسادة . فانحنى عليها وقال : أحقـاً لست مريضة ؟

— كلا : ولـكنى كاسفة البال فقط

— لا بأس

ثم انحنى عليها ثانية وطبع فوق جبينها قبلة

وفى الساعة السادسة استيقظ مارشمل وهو يتثاءت ويتمتم بهذه الـكلمات : لست أدرى أى شيء كان تحتى هذه الليلة

فرفعت (إلا) عينيها فرأت صورة ا.وبرت فى يده

— حسن . لقد قضى على

— أمستيقظة أنت أم نائمة ؟

— ماذا تعنى ؟

— أرى صورة هنا

— أظنها لأحد أصدقاء صاحبة المنزل

— إنى أعجب كيف جاءت هنا

— لقد رأيتها أمس فربما وقعت من يدى هنا

— إنه صديقك إذن

— إنه رجل ذكى وشاعر واعد وهو الذى يقطن هاتين الغرفتين ولكنى لم أره

— كيف عرفت هذا ما دمت لم تريه ؟

— مسز هوبر أخبرتنى ذلك عندما أعطتنى هذه الصورة

— حسن . يجب أن أتركك الآن . إنى لا أستطيع أن أصحبك معى . راقبى الأطفال جيداً حتى لا يبعدوا كثيراً عن المنزل

وما كاد مستر مارشمل يترك المنزل حتى أسرعت زوجته إلى مسز هوبر تسألها عن موعد حضور روبرت . فعلمت منها أنه سيأتى فى نهاية الأسبوع . ثم عاد مارشمل قبل الغروب وأخذ يقرأ الرسائل التى جاءته أخيراً ، وفجأة قرر الرحيل بعد ثلاثة أيام

— ألا يمكننا أن نبقى هنا أسبوعا آخر؟ إنى أحب هذا المكان

— ولكنى لا أجد فيه ما يغرى على البقاء

— إذن أبقى أنا والاطفال

وما الفائدة ؟ إنى مضطر إلى العودة ثانية لأصحبكم إلى المنزل . وعلى كل فلديك ثلاثة أيام أخرى

ولكن « إلا » رأت أنها مقضى عليها إذا لم تر روبرت ،

فبذلت آخر جهدها فعلمت أن الشاعر يقيم فى إحدى الجزر القريبة منها فذهبت إليها ولكنها لم تستطع أن تهتدى إليه ؛ فعادت كاسفة البال مهمومة النفس وقد أصبحت الدنيا فى نظرها أضيق من كفة الحابل

ولكن السرور ما لبث أن انبعث فى قلبها فأنار جوانبه القائمة . فقد عاد زوجها وغير رأيه وسمح لها بالبقاء حتى نهاية الأسبوع

ولكن الأسبوع قد مضى وروبرت لم يأت . وفى صبيحة يوم السبت ، كانت مسز مارشملى وأولادها فى طريقهم إلى المحطة . لقد كان الطريق مقفراً ثقيلا والجو خانقاً مكتئباً يبعث الضيق والضجر ولكنها بقيت بالرغم من ذلك تنظر إلى البحر وإلى الجزر المتناثرة فيه حتى غابت جميعها عن عينيها ، فأخذ قلبها المثقل المهموم يتلهف إلى حيث يقيم الحبيب.عادت إلى منزل زوجها الريفى الجميل جسما بدون قلب كأنها قبر متحرك . وأخيراً كتبت إلى روبرت تبثه إعجابها وتسأله رأيه فى بعض مقطوعاتها الشعرية التى أرسلتها إليه ، ثم انتظرت الرد ، فسرعان ماجاءها بما كانت تخشاه ، إذ جاءها خطاب مقتضب يذكر فيه أنه وإن لم يقرأ هذا الاسم « جون إيفى » من

قبل فسيعنى بكل ما تنشره بعد ذلك . وبالرغم من هذا فقد رأت إلا فى هـذا الخطاب القصير معنى آخر ، فقد كتب إليها روبرت بنفسه وفى تلك الغرفة التى كانت تجلس فيها

ثم أخـذت ترسل إليـه من حين إلى آخر بأجود ما تسمح به قريحتها الفياضة لتسأله رأيه فيه ، ولـكنها لم تتلق منه رأياً ، فعزت هذا الى أن روبرت يكتب اليها ظاناً أنها أحد منافسيه من جنسه

لقدكان روبرت صديقاً حميما لصاحب إحدى المجلات الأسبوعية الـكبرى ، وكان ذلك الناشر صديقـاً مخلصاً لزوجها فكتبت إليه تدعوه لزيارتها وأن يصحب معه صديقه روبرت

كان الشتاء قد انتهى فانقطع المطر ، وأخذت الازهار تتفتح، والطيور تشدو فوق الاشجار ، واتشحت الأرض برداء الربيع

وفى اليوم الموعود فى الساعة الخامسة سمعت قرعاً بالباب فهرولت إليه ولـكن هالها أن وجدت صاحب المجلة واقفاً وحـده فسألته :

— أين روبرت ؟

فأجابها . إنى آسف كثيراً لعـدم مجىء روبرت . إنه غريب الاطوار كما تعرفين . لقد وعدنى أنه سيحضر ثم عاد فاعتذر

— وعلى ذلك فهو لا يأتى اليوم

— نعم وقد أوصانى أن أعتذر إليك

— متى تركته ؟

— الآن على باب منزلك

— ماذا ؟ وهل مر بمنزلى ؟ !

لقد تحدثنا معاً بالباب ثم انصرف وهو فى حالة نفسية غريبة فقد أخرجه عن نفسه مقال نشرته احدى صحف المساء ؛ نال فيه كاتبه منه كثيراً ، ربما قرأته

— لا . انه ليس جديرا بالتفكير فيه . فهو كغيره من مئات المقالات التى ينشرها أصحاب العقول القديمة الضيقة . ان موطن الضعف فى روبرت أنه يهتم كثيرا بما يكتب عنه . ولكن كان واجبا عليه أن يعرف أن هناك من يعطف عليه ويعجب به

— نعم . نعم . لقد وصلته عدة رسائل من إيفى

— أيحب إيفى ؟ هل قال هذا ؟

— إنى لا أعتقد أنه أعجب به يوما

— ولا بشعره ؟

— لا !

وأخيرا أيقنت تلك المرأة المسكينة أن شعرها لم يستطع أن يرضي معبودها العظيم فذهبت إلى حيث ينام أطفالها وهجمت عليهم تشبعهم لثما وضما

أما الناشر فقـــد أدرك أنها لم ترد بدعوته إلا للقاء صاحبه ، فانصرف . وفى اليوم التـالى نشرت إحـدى صحف الصباح الخبر الآتى :

انتحار شاعر

«انتحر مستر روبرت ترو الذى عرفه الجمهور منذ سنوات شاعرا مطبوعاً ، وأديبا موهوبا فى منزله فى سولنتس يطلق نارى . إن الجمهور ليس فى حاجة الى تذكيره بديوانه الشعرى « أغانى المرأة المجهولة » الذى نشره فى العام الفائت ، والذى أثار ضجة كبيرة فى الأوساط الادبية

«انتحر عقب قراءته مقالا عنيفاً تناوله فيه كاتبه بالنقد والتجريح ، ثم نشر هذا الخطاب الذى كان قد أعده لاحـد أصدقائه وهو :

« عزيزى : قبل أن يصلك خطابى هـذا أكون قـد وضعت نهاية لتلك الضجة التى ثارت حولى. لن أثقل عليك بسرد الأسباب

التى حملتنى على هذا ، ولـكنى أؤكد لك أنها وجيهة مقنعة . ربما لو كانت لى أم أو أخت أو صديقة لما فـكرت فى أن أقطـع مجرى حياتى هكذا. لقد طالما حلمت بتلك المخلوقة المنشودة التى استوحيتها ديوانى الاخير ، ولـكن هذا الحلم لم يتحقق . وأرى لزاماً على أن أذكر ذلك حتى لا أحرج أية امرأة قد يظن أنها السبب فى هـذه المأساة »

* * *

قرأت (إلا) هـذا الخطاب وهى ذاهـلة عن نفسها ثم أسرعت الى فراشها وانكفأت على وجهها تبكى وتنتحب ثم أخذت تتمتم . « أواه لو عرفنى قبل ذلك ، أوه لو قابلته مرة واحدة ! لو أمررت يدى على جبينه الساخن ثم قبلته ، اذن لـكنت أذيقه طعم الحب وأشعره بالحيـــاة ، ولـكنت أريه استعـــدادى للتضحية من أجله، ولكن القدر لم يهيىء لى هذا ولم يتح لى أن أنعم فى جنته»

ثم قامت لساعتها وكتبت إلى صاحبة المنزل تطلب خصلة من شعر رأسه،وسرعان ما جاءها الرد يحمل خصلة الشعر ومكان المقبرة

وفى أحد الايام لاحظ زوجها أنها تخفى شيئاً فى صدرها فصاح.
ما هذا . أخصلة شعر ؟

فتمتمت قائلة . لقد مات

— من ؟

— لا أذكر اسمه

— حسن . ثم مضى الى عمله حيث أتفق أن قرأ خبر انتحار ذلك الشاعر . وسرعان ماتذكر حديث زوجه عنه والصورة وخصلة الشعر أيضاً .

وفى أحد الأيام هبت (إلا) مضطربة مهمومة فكتبت ورقة صغيرة الى زوجها تخبره أنها ذاهبة الى مكان بعيد قد يستغرق منها يوماً ، ثم انطلقت كالريح الى المقبرة . فلما جاءزوجها همست الخادمة فى أذنه بأن سيدتها لم تكن فى حالة هادئة فى الأيام الأخيرة ، وأنها تخشى أن تكون قد انتحرت ، ولكن الزوج كان عارفا بمكانها ، فأسرع تواً إلى المقبرة وهناك فى غسق الليل أخذ يتلمس طريقه عله يرى شبح زوجه ، وأخيراً لمح بصيصاً من النور يشع من بعيد، فسار اليه وسط أكوام من الصخور والرجام فرأى زوجه حانيـة فوق القبر فقال :

ما هذا ؟ أتتركين أطفالك وتأتين هذا الطيش ؟ إنى لا أغار من هذا التعس فقد أنهى الموت ما بيننا . ثم أمسك بذراعها وخرج

بها من المقبرة حيث أخذا اول قطار دون أن تنطق الزوجة ببنت شفة

مضت على هذه الحادثة بضعة شهور ولم يجرؤ أحد أن يكلم الآخر

أما إلا فقد كانت علتها تزداد سوءا بعد سوء حتى جاء يوم المخاض فقالت :

— إنى لا أعتقد أنى سأنجو هذه المرة

— فقال زوجها : أوه . ما هذا العبث ، لماذا لا تكون هذه المرة كسابقاتها ؟ فقالت :

— إنى أشعر أنى سأموت ، وسأترك فراغا فى قلوب أبنائى فقال :

— وأنا ؟ فقالت :

— إنك ستجد من يخلفنى . فقال :

— ألا تزالين تفكرين فى صديقك الشاعر ؟

فلم تجبه

ولم يمض على هذا الحديث ستة أسابيع حتى كانت (إلا) ملقاة فى فراشها لا تستطيع حراكا . وقد ذبل جسمها وجفت ينابيع الحياة

فيها . وفى الساعة الأخيرة قالت : « وليم . إنى أريد أن أعترف لك بكل شىء . إنك تعرف تاريخ زيارتنا لـولنتس ، لا أستطيع أن أخبرك كيف نسيتك ، ولكنى كنت فى حالة سيئة ، لقد ظننتك دونى كفاءة وعقلا بينما كان فوق قوة وذكاء . فأردت أن أبحث عن شخص يفهمنى . . .

ولكنها لم تستطع أن تزيد حرفاً على هذا فانتفضت انتفاضة سريعة كانت القاضية

لم يكن الزوج كغيره من الأزواج سريع الغيرة كثير الشك فلم يحاول قط أن يدفعها إلى الاعتراف بعلاقتها برجل مات

وفى نهاية العام الثانى بعد هذه الحادثة بينما كان مستر مارشمل يبحث عن أوراق زوجه ليحرقها قبل أن يقترن بزوجه الثانية رأى خصلة الشعر ، وصورة الشاعر ، وخطاب صاحبة المنزل ، وقد كتب عليه التاريخ بخط زوجته . فنهض مسرعاً وأحضر ابنه الصغير الذى كان السبب فى وفاة أمه ووضعه على ركبتيه ، وامسك بخصلة الشعر وأخذ يقارنها بشعر الطفل ، ثم وضع الصورة على المنضدة وأخذ يفحصها ويقارن بينها وبين قسمات وجه الطفل ، وكأن الطبيعة الماكرة قد شاءت أن تجعل الشبه قوياً . فصاح :

*

المرأة الحائرة

للقصصي الانجليزي توماس هاردي

عاشت عيشة مترفة هانئة فى قصر ريفى بديع يحف به الجمال من كل جانب... وكانت امرأة ذات حسن عبقرى ! وجسم خصيب ، وأنوثة متيقظة ، ترنو إليها العيون أينما حلت ، وتشيعها القلوب أينما ذهبت ، حتى أصبحت حديث أهل المدينة كلها وفتنة لشبابها ، فترامى اسمها إلى ماوراء ذلك الاقليم «ويسكس» يجد الناس فى ذكره حلاوة وفى ترديده متعه وسلوة . . . أما هى فقد استعذبت تلك الحياة وأخلدت إلى هذه الدعة واطمأنت إلى تلك الألسنة التى تهتف باسمها فى كل يوم ، ولكن قلبها المتكبر الذى كان يشرف على تلك القلوب الساجدة العابدة لم يجد هواه إلا فى شاب رقيق الحال عادى الهيئة قد انحدر من أسرة فقيرة متواضعة . إذ كان أبوه يعمل كاتباً فى « دائرة » والدها ، ولكنه كان وديع الخلق ، كريم النفس ، رقيق المزاج ، قد

تعساً لى . لقد خانتنى فى هذا الطفل . دعنى أرى التاريخ :
الأسبوع الأول من اغسطس . . . الثالث من مايو . . نعم . . نعم
وأخيراً صاح : اذهب أيها الحيوان إنك لاتنتسب إلى !



أغرمت به فتاة قروية ساذجة ، فلم يرد أن يصدمها فى حبها الأول ، بل وهبها جانبا من حبه الشاب الفائض ، وأحلها ركناً من أركان قلبه الفسيح العامر ، فأرادت تلك الفتاة النبيلة «كارولين» أن تستأثر بذلك الشاب فاغتنمت فرصة تردده على منزل والدها بحكم عمله وأخذت تتودد إليه . . . تحدثه مرة وتغازله أخرى ، وكانت ماهرة فى هذا الفن مجيدة لهذا النوع من الصيد . . . ولم يكن الشاب بالجامد القلب ، الخامد العاطفة بل كان مشبوب الاحساس ، ملتهب الشعور فسرعان ما استجاب لبريق عينيها ، وخضع لرخامة صوتها...ولكنه لم يكن يعتقد أن حظه سيسمو به إلى مراتب النبلاء ، بل أيقن أن اهتمامها به لا يعدو فرجة لعواطفها المكبوتة ، وألهية لنفسها الحائرة ، ولم يدر أن هذه الفتاة تكره أصحاب الطبائع المزيفة والشخصيات المستعارة . . .

ولكن قد يجيء الوقت الذى ترى فيه العين الغبية الغاشية فى عين صاحبها نور الحب وبريق الهيام ، وها قد جاء للفتى الموعود ، ولم يكن بالغبي الاحمق فسرت الطمأنينة إلى قلبه ، وتعددت بينهما المقابلات حتى إذا ما خلا كل إلى صاحبه كشف له عن نفسه وباح له بمكنون سره ، فيتهامسان ويتناجيان ثم ينصرفان دون أن يذيعا سراً ،

أو يفضحا أمراً ... ثم تمكنت بينهما الألفة حتى لم يستطيعا أن يكبحا تلك العواطف الثائرة التى كان تضطرم فى قلبيهما

ولكن الفتى كان دونها شرفاً ومرتبة ، فلم تكن تستطيع أن تعلن زواجها به ، فاتخذت للمسألة حلا وسطاً ، فعزمت على الاقتران به دون أن يعلم بذلك أحد . . . ثم نظما فيما بينهما مواعيد المقابلة ، فكانا يلتقيان فى إحدى غرف المنزل بعيدين عن أعين الناس ، فيقضيان ساعة تسكر فيها روحاهما بلذة الهدوء والغبطة ، ولكن هذه العاطفة المشبوبة ما لبثت أن خمدت فأخذت تفيق من السكرة الأولى وخلت الى نفسها تفكر فيما أتته من طيش ورعونة ، وكيف أن فتاة كريمة المحتد عريقة النسب تتزوج من شاب دونها شرفاً وقدراً ... وكان خليقاً بها أن تقترن بنبيل عظيم ، أو قاض نابه ، أو أسقف جليل ... أجل لقد كان زوجها الشاب ذكى الفؤاد واسع الاطلاع ، ولكنه كان قليل التجارب ضيق الخبرة ...

لقد اعتاد أن يزورها تحت أستار الليل فيتسلق إلى نافذة غرفتها فيجدها فى انتظاره ويأوى إلى جانبها ساعة والناس نيام ، ثم يعود إلى كوخه الصغير قبل طلوع الفجر ... ثم جاءها ليلة وقد شاقه الحب إليها ، ولكنه لم يمض معها ساعة حتى مل الحديث وهم

بالنزول ، فقد كان لقاء ثقيلا متكلفاً سمع فيه ما أثاره وأخرجه عن نفسه إذ شعر أن قلبها قد أخذ يتحول ...

والحقيقة أن اهتمامها بمصيرها أخذ ينسيها حبها له ... وعلى فجأة أحس بألم يقطع أحشاءه فهب واقفاً ثم مال الى النافذة يستنشق بعض الهواء ، ثم مالبث أن همس بهذه الكلمات : « آه ياقلبي ! » ثم سقط على الأرض جثة هامدة ... فأسرعت إلى إشعال المصباح وقد خبا ضوؤه وانحنت عليه تسأله مابه ، ولكن قلب المسكين كان قد وقف ، فاستيقظ فى ذهنها ما كان الطبيب قد قاله له من أنه مصاب بمرض القلب ؛ وأن هذا المرض قد يورده حتفه يوماً

ثم أخذت تفحصه مدة طويلة ولكنها أدركت أخيراً أن زوجها المسكين قد قضى نحبه فبقيت حائرة لاتدرى ماذا تعمل

ولقد أحست أولا بالحزن والأسى على فراقه ، لكنها مالبثت أن أخذت تفكر فى مكانتها كابنة أحد النبلاء فنظرت الى الجثة وقالت : « لماذا تموت هنا أيها الزوج التعس وفى تلك الساعة ؟.. لماذا لم تمت فى كوخك ..؟» اذن لما عرف أحد أمرنا ولبقى سرنا مكتوما . ولكن دقات الساعة العالية فى سكون الليل العميق قد أيقظتها من ذهولها ، فنهضت مسرعة الى الباب ، وقد عزمت على إخبار والديها بحقيقة الأمر ظانة أن هذا

هو الطريق الوحيد لخلاصها من هذا المأزق ... غير أنها لم تكد تدنو من الباب حتى رجعت عن عزمها وقد أيقنت أن فى إيقاظ والديها إفشاء لسرها كله ، فعولت على حمل الجثة بعيداً من دون مساعدة أحد .. ثم أخذت تتهيأ لهذا العمل الجسيم ، فألبسته ملابسه وربطت ذراعيه ونزلت به سلماً ضيقاً ... ثم حملته إلى مكان أمين تظلله الأشجار ... وعلى باب كوخه ألقت بحملها الثقيل ، وقد أخذ منها التعب كل مأخذ ، ثم وضعت فى يده مفتاح بيته الخشبى لتعمى الحقيقة على الناس ، وانحنت عليه وقبلته القبلة الأخيرة ، وعادت أدراجها وهى تعفى آثار قدميها فى الطريق ... ثم انسلت إلى مخدعها دون أن يشعر بها أحد ، وأوت إلى غرفتها وأغلقت نوافذها ، وأعادت كل شىء إلى ما كان عليه

ولكن لم يكد يطلع الصباح حتى ذاع فى المدينة نبأ موت ذلك الشاب الريفى الوديع على باب منزله وهو يحاول فتحه .. لقد كانت جميع الظروف تدل على أن الميتة طبيعية ، فلم يثر حولها نقاش ... ولكن بعد تشييع الجنازة أخذ الناس يهمسون أن رجلا كان سائراً فى الطريق فى ساعة متأخرة من الليل ، فرأى شبح امرأة يدب فى الظلام وهى تجر جثة ثقيلة فى طريقها إلى كوخ ذلك الفتى

فأخذوا ملابسه القديمة وفحصوها من جديد ليروا فيها آثار الجر على الأرض ، وأخيراً عرفوا أنه هو الرجل بعينه .

أما كارولين الجميلة الذكية فأخذت تفكر فيما يجب أن تعمله .. فرأت أولاأن تعترف بالحقيقة كلها .. إلا أنها بعدأن بلغت تلك المرحلة دون أن يفتضح أمرها أو يرتاب فيها أحد ، عزمت على بذل مجهود آخر لاخفاء باقى المعالم ... وسرعان مالمعت فى خاطرها تلك الفكرة ... لقد كان ذلك الزوج يحب فتاة قروية قبل أن يقع فى شراك هذه النبيلة ، وكانت هذه الفتاة لاتزال على حبها له إذ لم تكن تعرف من زواجه شيئاً . . على أن نفوذ كارولين فى أولئك الفلاحين الذين يعملون فى أراضى والدها كان عظيما . . . لها الكلمة النافذة والقول المسموع ... فعزمت على مقابلة تلك الفتاة تمسح فيها عارها وتحملها نتيجة وزرها بعد أن أخذت تفيق من نشوتها ، وشعرت بآلام الفضيحة والندم تنوش صدرها كلما ذكرت ذلك الزوج المنحوس ، حتى لقد كرهت اليوم الذى لقيته فيه وودت أن لم تكن قد رأته قط . وسرعان ما اهتدت الى تلك الفتاة فوجدتها ممتقعة اللون مهدودة الجسم ، قد ارتدت ثوباً أسود حداداً على ذلك الشاب الذى أحبته وأخلصت له وإن لم يعتن

بها إلا قليلا .. فقالت كارولين :

آه ! لقد فقدت حبيبك يا « ميلى »

فلم تستطع الفتاة أن تحبس دموعها المنهملة وقالت : « لم يكن حبيبي تماماً ولكنى كنت أنا حبيبته . أما وقد مات فانى لا أهتم بالحياة بعده »

«أتستطيعين أن تبقى على سر من أسراره ياميلى؟إن هذا السر يتصل بشرفه ولا يعرفه إنسان غيرى ، ولكن يجب أن تعرفيه أنت»

فأظهرت الفتاة استعدادها لكتمان هذا الأمر . وحقاً لقد كانت وفية لذلك الشاب الذى أحبته والذى تبكيه الان

« إذا فقابليني اليوم بعد الغروب عند قبره أفضى اليك به »

وفى غسق تلك الليلة من ليالى الربيع الجميلة ، كان شبحاها تين الفتاتين يحومان حول قبر ذلك الفتى التعس . وفى ذلك المكان الموحش ، وفى تلك الساعة الرهيبة ، أخذت الفتاة ذات النسب والجمال تقص على ابنة الحطاب كيف أحبته وتزوجته سرا ، وكيف مات فى غرفتها ، وكيف جرته فى جوف الليل الى كوخه حتى لا يفتضح أمرها

فصاحت تلك الفتاة الساذجة مذعورة :

— تزوجته يا سيدتى ؟!

— نعم ولكن هـذا كان طيشـا منى . كان الأجدر به أن يتزوجك أنت يا ميلى فقد كنت له ولكنك فقدته

— نعم وهم من أجـل ذلك يسخرون منى فيقولون : لقـد جننت به حبا وهو لم يلتفت اليك

— ان النصر على أولئك المتهكمين حلو لذيذ ... لقد فقدته حيا ولكن يمكنك أن تسترديه ميتا وعلى ذلك تستطيعين أن تنالى من أولئك الساخرين ما تريدين

— وكيف ؟

فأفضت إليها كارولين بما يجب ان تفعله . . .

وهو أن تعلن ميلى بين الناس أن ذلك الشـاب كان قد عقد عليها سراً ، وانه كان يزورها فى كوخها فى الليلة التى توفى فيها . فلما قضى نحبه بين يديها حملته إلى منزله لتدرأ عن نفسها الفضيحة والعار . . وأن تقول إنها كانت عازمة على حفظ ذلك السر فى نفسها لولا أن الاشاعات والأقاويل قد أجبرتها على إفشائه

فأجابتها ابنة الحطاب وهى دهشة لهذه الفكرة :

— وكيف أثبت هذا ؟

— يمكنك أن تقولى إنك تزوجته فى كنيسة القديس ميخائيل فى مدينة (باث) باسمى بحجة أنه اسم خطر ببالك لتنقذى اسمك من التهمة . . . وسأعينك على ذلك

— أوه إنى لا أحب أن ....

— إذا عملت ما آمرك به فانى سأكون صديقة لك ولولدك وإلا فسيكون لى معكما شأن آخر . . وسأعطيك الآن خاتم الزواج لتلبسيه كما لو كان لك

— هل لبسته ياسيدتى ؟

— فى الليل فقط

وأخيراً قبلت ميلى ما عرضتـه عليها كارولين دون تردد كبير إذ لم يكن الوقت يحتمل تردداً . . ثم أخرجت الفتاة النبيلة الخاتم من صدرها ووضعته فى إصبع ميـلى وهى واقفة على قبر حبيبها . فاقشعر بدن الفتاة ومالت برأسها وقالت .

— أشعر أنى أصبحت عروساً لجثة

ولكن هذه الفتاة ما لبثت أن شعرت أنها قد ارتبطت بتلك الجثة قلباً وروحا وأحست بشىء من الهدوء يسرى إلى نفسها .. تخيل إليها أنها قد استحوذت فى الموت على ذلك الشـاب الذى

عبدته على غير طائل فى الحياة

ثم أعطتها كارولين كل آثار الذكرى التى كان زوجها قد قدمها إليها حتى خصلة الشعر

وفى اليوم التالى أعلنت الفتاة ذلك الأمر بين الناس حتى ذاع بين أهل المدينة كلها . وفى ذهول ذلك الموقف الجديد أخذت ميلى المسكينة تمثل الدور كما لو كان قد حدث معها فعلا . واستطاعت بما كانت تصيبه من مال كارولين أن تشترى منزلا صغيراً وأن تتردد على الكنيسة من وقت لآخر ، وقد ازدادت جمالا وفتنة أيقظ فى قلوب خديناتها القرويات الغيرة والحسد . . ثم فكرت فى أن تقيم نصباً تذكاريا فوق قبره مادامت كارولين تقوم بدفع النفقات ، فما عليها هى الا أن تقدم الحزن والأسى . . وما لبثت ميلى أن ارتاحت الى تمثيل دور الأرملة ، ووجدت فى زيارته كل يوم والبكاء فوق قبره لذة وتفريجاً . فكانت تنثر الأزهار فوق قبره واصبحت تعتقد وهى تخطر فى ثوبها الحزين أنها كانت زوجة حقاً

ثم اتفق أن مرت كارولين يوما مع بعض صاحباتها بتلك المقبرة فلمحن ميلى وقد انحنت على قبر حبيبها تنثر فوقه الأزهار فى رقة وحنان فتأثرن لهذا المشهد المؤلم وعجبن لذلك الوفاء النادر الذى لا بد ان

تكون صاحبته قد وجدت صداه فى ساكن ذلك القبر .. أما كارولين فقد شعرت كأن نورا غريبا ينبعث من عينيها يحسد تلك الفتاة على مكانها هذا كأنه لا يزال بقلبها بعض الحب لزوجها المتوفى ... ولكن الفروق الاجتماعية أكرهتها على اخفائه فى طيات صدرها . وأخيرا لم تستطع تلك الفتاة أن تقهر تلك العواطف القوية التى كانت تصطرع فى نفسها .. فذهبت يوما الى المقبرة ، وكمنت وراءها حتى اذا ماجاءت ميلى تنثر الأزهار على القبر كعادتها كل يوم برزت لها كارولين وهى شاحبة مرتجفة تقول :

— ميلى ! اقتربى منى ! انى لا أدرى ماذا أقول لك .. فقد كدت أموت

فعجبت ميلى لهذه المفاجأة الغريبة وقالت .

— معذرة ياسيدتى !

فدنت منها السيدة واختطفت يدها اليسرى وقالت .

— أعطنى هذا الخاتم

فأسرعت ميلى الى انتزاعه من أصبعها .. ثم أعادت كارولين سؤالها فى صوت حاد غاضب وقالت

— انى أطلب اليك أن تعطينى اياه ... أوه ! أوه انك لا

تعرفين السبب .. لقد عرانى حزن وألم لم أكن أتوقعهما !

فأجابتها ميلى وقد تملكها الذعر

— ولكن ماذا تريدين ياسيدتى ؟

— يجب أن تعلنى أن كل ما عملته كان كذبا وادعاء لاأساس له من الصحة . . . وأنى أمرتك أن تعمليه محافظة على اسمى ... وأنه لم يتزوج غيرى . . وجملة القول يجب أن تذيعى الحقيقة وإلا قضى على جسمى وعقلى وشرفى الى الأبد »

ولما كان لكل شيء حد فان للهدوء والوداعة حدهما أيضاً .. فقد أصبحت ميلى تعتقد أنها قد امتزجت بذلك الشاب لحما ودما وأصبح لها الحق فى أن تحمل اسمه كما حملته ... وأن تحلم به كزوج وتتحدث عنه كزوج .. حتى لم تعد تفكر فى سواه . وأخيرا قالت وقد غمرها اليأس والقنوط :

— لا .. لا .. انى لا أستطيع أن أتركه .. لقد أخذته منى حياً ورددته الى ميتا . سأحافظ عليه الآن . أنا أرملته الوحيدة . فان نصيبي فيه أوفر من نصيبك لأنى أحبه وأبكيه وأدعى باسمه العزيز

فصاحت كارولين وقد كاد الشرر يتطاير من عينيها

— إني أحبه ولن أسمح لمخلوقة مثلك أن تنتزعه منى ...

كيف أسمح بذلك وهو أب لذلك الجنين الذى يضطرب فى أحشائى ... يجب أن تعيديه الى ثانية ... ميلى! ميلى !ألا ترحمينني وتقدرين موقفى ؟ياللتضرع ! انه عدو النساء ، لماذا لم آروِ قبل أن أقدم على العمل ؟ هيا أعطينى ما أعطيتك وأكدى لى أنك ستساعدينني على نشر الحقيقة

— محال ! محال ! ؟

وقد ازدادت الفتاة اصرارا وعنادا . « أنظرى الى هذا النصب ... أنظرى الى ثوب الحداد ... الى هذا الخاتم ... استمعى الى الاسم الذى ينادوننى به ... ان نفسى ليست اهون على من نفسك ... أفبعد أن أعلن أن حبه حبى ، وأن نفسه نفسى ...وأحمل اسمه بدلا من اسمى ، واتخذ من موته حزنى وشجنى ... أجىء اليوم فأهدم ما بنيته بدمى ودمعى .. لا ! لا ! لن أرضى لنفسى هذا العار ... انى أصدقك القول يا سيدتى ... ان قصتى هى الحقيقة بعينها ، وأنك كنت واهمة فى كل ما ادعيته لنفسك ... ولكن أرجو ياسيدتى ألا تدفعينى الى هذا ، انى أتوسل اليك ان تبقيه لى»

لقد كانت ميلى تزعم أنها أرملة تدافع عن زوجها ... حتى أن كارولين رقت لحالها بالرغم منها ... فقالت لها .

— . إني عالمة بموقفك . ولكن فكرى فى . ماذا أعمل . فبدونك لن أستطيع أن أبقى على اسمى . فان نشر الأكاذيب والفضائح أحب شيء للجمهور . » ولم تمض بضع دقائق حتى كانت الفتاتان قد شعرتا بضرورة العمل معاً . فأخذتا تتشاوران فيما يجب أن يعملا . وأخيرا عادت ميلى الى بيتها . وأفضت كارولين الى أمها بكل ماحدث . ولم يمض على ذلك بضعة أيام حتى تركت كارولين وأمها القرية وذهبتا الى لندن حيث وافتهما هناك ميلى بحجة تغيير الهواء على نفقة تلك الفتاة النبيلة التى كانت تشفق عليها فى محنتها ووحدتها

وفى مستهل العام الجديد عادت ميلى الى القرية تحمل بين ذراعيها رضيعاً فأقامت فى منزلها الصغير تعنى بذلك الطفل الجديد بما كان يصلها من كارولين من مال .

وبعد ذلك بعامين تزوجت كارولين بأحد النبلاء . فعاشت معه عيشة سعيده إلا أنهما لم ينجبا طفلا . بينما كان ابن ميلى يكبر شيئاً فشيئاً ، وكانت أمه تتوسم فيه يوما بعد يوم صورة ذلك الرجل الذى استحوذ على قلبها الشاب . ثم ذهب به الى القبر . فسهرت على تربيته قدر ما كانت تسمح به ظروفها . اذ أخذت كارولين تنصرف عنهما شيئاً فشيئا ، ولم تعد تفكر فى طفلها الالماما ! ولكن ميلى كانت

تقتطع من قوتها لتقوم بنفقـات الطفل ، فأرسلتـــه الى المدرسة الابتدائية . . ولما بلغ العشرين دخل الجيش متخذا من الجندية ألهيته وعمله ، وسرعان ما اكسبته رجولته الكاملة وأخلاقه القوية ومواهبه النادرة إعجاب رؤسائه .. فحبوه بعطفهم وحبهم حتى أبلى بلاء حسنا فى تلك الحرب الضروس التى خاضتها بلاده أخيرا ... فلما انتهت عاد الى انجلترا وقد رقى الى قائد فرقة ولما يبلغ الخامسة والعشرين

ترامت أخبار ذلك الابن الى كارولين ..وكيف أنه قد أشرف على الذروة دون أن يكون صنيعـــة لأحد .. فأيقظت فيها غرائز الأمومة الكامنة وملأتها كبرياء وفخرا . فأخذت تهتم بابنها الظافر الموفق ورغبت فى رؤيته بعد أن توفى زوجها « المركيز » دون أن تعقب منه ولدا .. فاتفق يوما بينما كانت تسير بعربتها خارج المدينة أن مرت بها احدى الفرق العسكرية فوقع بصرها على ضابط شاب قد امتطى جوادا أصيـلا مطهما .. فسرعان ما عرفته لما بينـه وبين زوجها الأول من شبه قوى ، فأيقظ هذا المنظر عواطف الأمومة التى بقيت كامنة فى زوايا قلبها هذه المدة الطويلة ، فأخذت تسائل نفسها كيف صبرت على اغفاله هذه السنين الطوال .. فلو أنهـــا

كانت جريئة فى حبها مخلصة فى عاطفتها ..لاعترفت بزواجها الأول ولنهضت بتربية ذلك الطفل كابن لها .. فماذا كان يضيرها لو أنها فقدت هذه الجواهر النادرة و كسبت ابنا شهما قادرا .. أخذت هذه التأملات والعواطف تعمل فى قلب تلك المرأة المكتئبة الوحيدة ، وأخذ الندم ينوش فؤادها الحزين على عدم الاعتراف بزوجها الاول أضعاف ما آلمها للاقتران به

وأخيرا لم تستطع أن تغلب تلك الرغبة القوية الملحة التى كانت تتأجج فى صدرها حتى أيقنت أنها لا يمكنها ان تعيش دون أن تعلن أمومتها لهذا الفتى ، فعزمت على أن تنتزعه من حضن تلك المرأة التى أخذت تضمر لها الكراهيةوالبغضاء لأنها استبدت بذلك الطفل دونها .. ثم أيقنت أن ذلك الابن سيرحب باستبدال فلاحة معدمة ، بأم أخرى نبيلة غنية

وفى اليوم التالى ذهبت الى بيت ميلى القديم فى تلك القرية الصغيرة فوجدتها لا تزال فى ثيابها السوداء الريفية حدادا على فقد حبيب شبابها .. فلم تكد تخطو الى داخل الكوخ حتى صاحت :

— إنه ابنى يجب أن تتركيه لى .. لقد أصبحت فى موقف أتحدى فيه العالم أجمع .. أظنه يزورك من وقت الى آخر

— كل شهر منذ أن عاد من الحرب .. يا سيدتى .. ويمكث يومين أو ثلاثة فى كل مرة .. وأصحبه أحيانا فى رحلات قصيرة .

قالت هذا فى صوت الظافر المطمئن

فأجابتها كارولين فى هدوء :

— حسن . يجب أن تتركيه لى . انك لن تفقدى شيئا فلك أن تريه متى شئت . سأذهب الآن الى اثبات زواجى الاول وسآخذه معى

— لقد نسيت يا سيدتى أن هناك اثنين يجب أن يؤخذ رأيهما فى هذا الموضوع ، لست أنا فقط بل هو كذلك

— سأنجز كل شىء . لا تظنى أنه سيرفض . ولكنها لم ترد أن تسرع الى ميلى بالتعرض الى الاصل والنسب ، فقالت : انه لحمى ودمى ولا يتصل بك فى شىء . فانفجرت القروية غيظا وقالت فى تهكم مرير : « ماذا يعنينى من أمر اللحم والدم ؟ انى أترك المسألة له لندعه يفصل فيها بنفسه »

فأجابتها كارولين . « هذا كل ما أبغيه . قلت أرسلى فى طلبه ولأقابله هنا » . ثم أرسل فى طلب الضابط ، وجلس الثلاثة فى ذلك الكوخ الصغير يتداولون فيما بينهم

لم يدهش الشاب إذ علم أن أمه إحدى النبيلات الشهيرات فقد كان يعرف أن ولادته محوطة بشيء من الغموض — أما سلوكه نحو البارونة فانه لم يخل من الاحترام والتقدير ، إلا أنه كان أقل مما تنتظر ، وأخيراً وضع أمامه أمر التفاضل بينهما وسرعان ماقال قولته الأخيرة :

« لا ياسيدتى . إنى أشكرك كثيراً ، ولـكنى أفضل أن أترك الأمور كما هى ، فان اسم والدى هو اسمى على أى الحالات . انكلم تعنى بى ياسيدتى إلا قليلا عندما كنت طفلا لاحول لى ولاقوة ، فلماذا أدعى اليك الآن وقد أصبحت قوياً قادراً ؟!!

ان هذه المخلوقة العزيزة (مشيرا الى ميلى) قد حبتنى عطفها طفلا ، وعالتنى شاباً ، وسهرت على مريضاً ، وحرمت نفسها حتى أتفه اللذات من أجلى . انى لا أستطيع أن أحب أماً أخرى كما أحبها. إنها أمى وسأكون دائما ابنها ، ثم طوق عنقها بذراعيه وطبع على جبينها قبلة أودعها أرق عواطف البنوة وأسماها

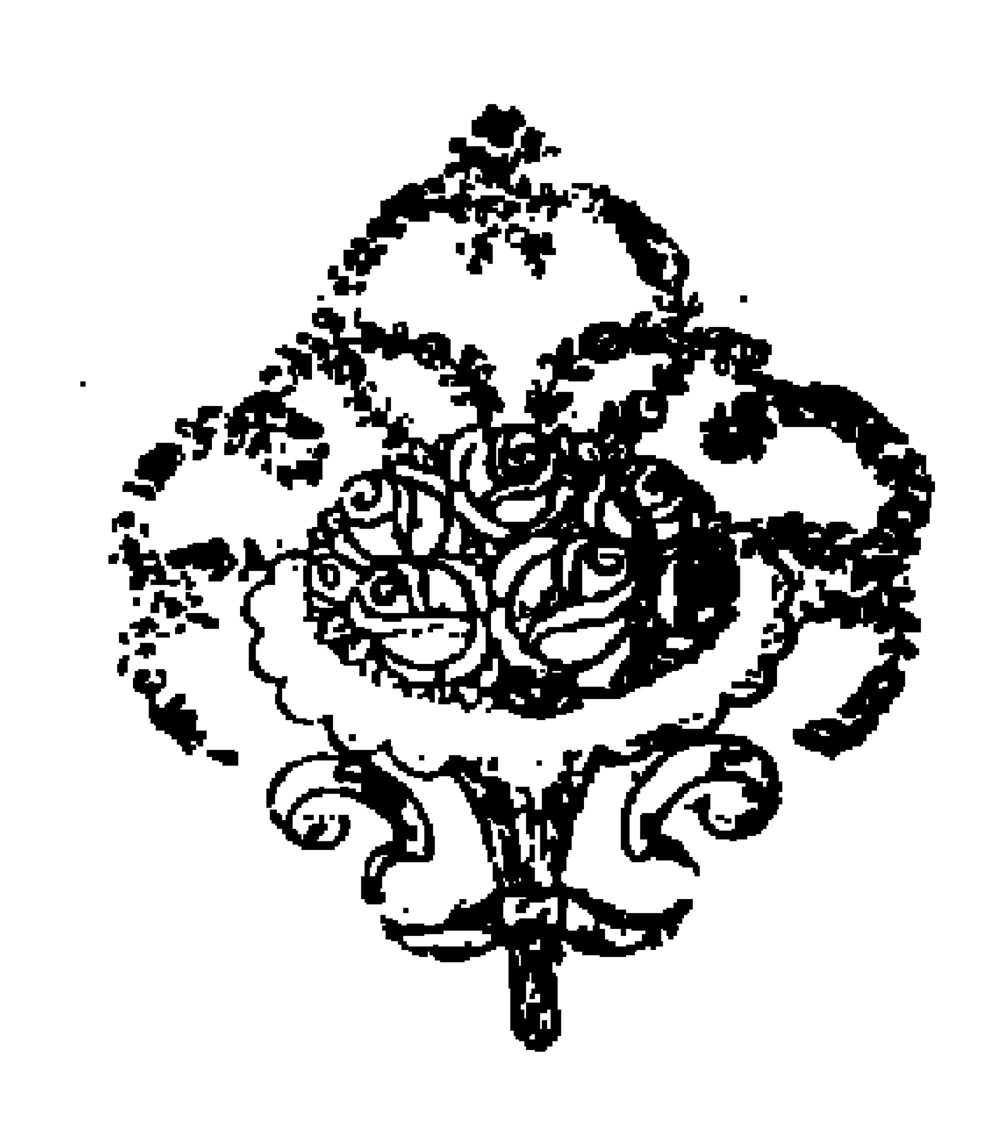
فلم تقو كارولين المسكينة على مشاهدة هذا المنظر الذى كاد يستل روحها من بين أضالعها . فقالت وقد خنقتها العبرات وتهدج صوتها فى حلقها :

— انك تقتلنى ! ألا تستطيع أن تحبنى أيضا ؟

— لا ياسيدتى . لقد كرهت أن تنتسبي الى أبى الفلاح ، وإنى أكره أن أنتسب اليك !

فتنهدت المرأة تنهدات عميقة عالية وقالت : « ألا تستطيع أن تعطينى قبلة واحدة ... كما أعطيتها ؟ إنها ليست كثيرا ... هى كل ما أريد ... كل ...

فأجابها نعم . ثم قبلها قبلة عابرة باردة كانت فيها نهايتها .



*

*

جان دارك

للشاعر الالمانى فردريك شيلر

« لقد اكتمل نضجها . ان جسمها كالزهرة الغضة ، قد تفتح عن جمال قدسى ولكن عبثاً ننتظر جنى الثمار . أشد ما يؤلمنى نفورها من أختيها وامتناعها عن الزواج مثلهما — تترك فراشها قبل الفجر ، وتنسل كالعصفور الوحيد فى غسق الليل الى شعاف الجبال متخذة من الرياح البرية صاحباً وخدينا

« لماذا لا تتزوج كاختيها من هذا الشاب الجميل ريموند وتأخذ نصيبها من الحياة وتعيش كما نعيش ؟

« طالما رأيتها جالسة تحلم تحت الشجرة المسحورة التى يرتاع منها كل من يراها لان روحا خبيثة تسكن هناك ، مسكن الوثنيين الأقدمين ، وطالما سمعت فلا حينا يقصون عنها قصصا غريبة كلها هول ورعب . كأصوات خفية ليست كأصواتنا تصافح آذاننا وهى

تنبعث من الاعماق . وقـد حدث، مرة أن ضللت الطريق الى تلك البقعة فلمحت شبحا هائلا يخرج من عباءته الطويلة يداً نحيلة فهرولت فزعا واستعذت بالله من شر تلك الارواح

« لقد رأيت جان في ثلاث ليال متعاقبة جالسة على العرش في « ريمس » وعلى جبينها اكليـل بسبع نجوم وبيدها صولجان بثلاث زنابق ، ورأيت نفسي وشقيقتيها والنبلاء والاساقفة والملك نفسه ينحنون أمامها ، كيف أستطيع أن أصدق هذا الحلم الرائع ؟ آه انها لمقدمة شر عظيم ! ان هذا الحـلم يكشف عن تلك الرغبة الباطلة والشوق الخاطىء الذي يتملك قلبها . انها تعاف منبتها الوضيع لأن الله حباها جمالا غنيا واختصها من بين فتيات هـذا الوادي بقلب ذكي وعقل نير وجسم خصيب

« بهذه الـكبرياء التي سقط بها الملائكة من قبل ستغوي هذه الشيطانة الملعونة الناس . سأصمت الآن . أيمكن أن أتهم ابنتي ؟ لا أستطيع إلا ان أحذرها وأصلي من أجلها . ألا سحقا لتلك الشجرة الملعونة ، الافضل ألا نترك أنفسنا في البرية فان أمير الظلام يستطيع أن يغوي الانبياء ، إن قلبها قلب رجل . لقد أخضعت مرة الذئب، ذلك الحيوان الـكاسر الذي انقض على قطيع الغنم وملأ الوادي

خوفا ورعبا ، ولم يستطع أحد ان يدنو منه الا جان قلب الاسد فقد انقضت عليه وخلصت ذلك الحمل من بين أ نيابه الدامية »

بهذاكان يتكلم «تيبو» والد «جان» عند ما دخلت عليه معها اختاها والازواج الثلاثة الذين يأخذون فى التحدث عن حالة البلاد وما صارت اليه ، فيخبرهم تيبو أن العدو قد تغلغل فى قلب البلاد أكأنه جيوش من النحل تحوم حول خلاياهــا فى يوم صائف ، أو كسحب من الجراد قد ملأت الجو . فمن برغنديين الى هنجاريين وهولنديين وانجليز ـ الكل قد انضوى تحت لواء دوق نرمندية وهم يحاصرون الآن أورليان . لقد تهدمت الــكنائس وأخذ حصن «نوتردام» المنيع يخر من قنته،ورصاص البنادق سيدوى فى الشوارع وتقف المدينة مرتجفة تترقب سقوطها من ساعة الى أخرى . وقد استولى الذعر على جميع السكان وتذمر الجند من قلة الرواتب ،وذابت صيحات الملــك فى فضاء المملكة ، واضطرب الناس فيما بينهم كما تضطرب الشياه اذا هاجمتها ضوارى الذئاب

فلا تكاد تسمع جان هذا الكلام حتى تنتفض وتقول كأنه قد أوحى اليها :

« لاتتحدث عن الضعف والاستسلام فسيأتى المنقذ وسيرد

العدو عن أبواب أورليان — لقد جاءت الساعة وهاهو ذا يقترب الان ومعه تلك العذراء. لا تيئسوا ولا تهربوا فانه قبل أن تنضج تلك الثمار أو يكتمل القمر لا يبقى جواد انجليزى يرد مياه نهرلوار الجارية ، ستكون معجزة ، ستظهر حمامة بيضاء كالثلج وفى قوة النسر ستمزق طيور الفريسة التى تحوم فوق أرض الوطن . ستنقض على البرغنديين الخائنين وستطرد لصوص الجزيرة — ان الله الحرب سيختار ذلك المخلوق الضعيف الرقيق ويضع فيه قوته لانه قوى جبار »

فيعجب القوم من أمر هذه الفتاة ولا يفهمون ماذا تعنى بهذا الكلام فيتركونها تسبح فى أحلامها وينصرفون الى شئون الرعى والزراعة ، فتبقى جان وحيدة تخاطب نفسها .

« وداعاً أيتها الجبال المحبوبة والوديان النائية المطمئنة . إن جان لن تمكث فيك بعد اليوم لانها ستفارقك الآن ، أيتها الحقول التى طالما رويتك ! أيتها الاشجار التى غرستك ، أيتها الازهار المتفتحة والثمار الحلوة اللذيذة وداعاً ! ! أيتها الينابيع البلورية ذات الاصداء العذبة ! روح الوادى المحبوب التى طالما رددت أناشيدى ! ان جان ستغادرك اليوم الى حيث لامعاد . ايه يا مسارح صباى ومواطن

لهوى وسرورى سأخلفك الان ورائى ولن أراك ثانية ! أيتهـا الحملان والخراف الصغيرة يامن تركت بدون مأوى لن يرعاك بعد اليوم راع ، ستهيمين طريدة لانى وطنت العزم على الذهـاب الى ميدان الحرب ذى اللون القرمزى حيث أجد هناك قطيعا ينتظرنى

« ان هذه هى رسالة الروح الى قلبي ، ومـا من طمع ارضى يشيع فى صدرى! !

إن ذلك الذى ظهر فى العليقة الى موسى فى البرية وأمره أن يذهب ويقف أمام فرعون لينقذ بنى اسرائيل قد جاءنى وأمرنى ان اذهب لا كون رسولا له على الارض وان أكسو صدرى بالدروع وأدجج جسمى بالسلاح . فلا الحب الارضى يستطيـع أن يعرف طريقه الى قلبي ولا النزوات الدنيئة تتسلط على نفسى . ولن أحمل رضيعاً . بل المجد الحربى نصيبي ! وتحرير الوطن رسالتى ! وتتويج الملك فى كـنيسة « ريمس » شهرتى وفخارى . لقد وعدتنى تلك الروح السماوية بعلامة . فقد أرسلت الى هذه الخوذة التى تبعث فى قوة مقدسة فأندفع كالريح العاتية الى ميادين الحرب . الابواق تدوى والمهاجمون يصيحون وزئير الحرب فى أذنى ! فهيا الآن »

ثم تدق الطبول وينفخ فى الابواق اعلانا للحرب . ويلتحم

الجيشان وتدور الدائرة على جيش الانجليز فتموت زهرة فرسانه وينسحب البرغنديون وتتراجع جان تاركة جيشها فى نشوة الانتصار الى مكان منعزل وتصلى للعذراء التى قوت عزمها فى كل هذه المحن والخطوب. ويذهب الفرسان وبأيديهم المشاعل معلنين فوزهم وانتصارهم. فيعجب الملك لهذه المفاجأة ولا يصدق حتى يأتيه قائده « دينوا » وهو نبيل من نبلاء فرنسا وفارس من فرسان الحرب. فيقص عليه كيف كان انكسار الجيش الفرنسى أولا ثم انتصاره أخيرا على يد تلك العذراء التى تقدمت الى الجند فى ملابسها الحربية كأنها إلاهة الحرب وصاحت فيهم : « ماذا يخيفكم أيها الفرنسيون الشجعان ؟ هيا الى العدو ولو كان يفوق رمال المحيط عداً. فان الله والعذراء معكم » ثم اختطفت العلم من حامله وتقدمت الصفوف فى شجاعة نادرة والكل ذاهل صامت لا يدرى ماذا يفعل من هول ما رأى. فوثب الجيش متتبعا العلم والعذراء. وفى حماسة ملتهبة انقض على العدو الحائر المذعور فاندفع شطر منه الى الماء وأسلم الشطر الآخر بغير مقاومة. ثم كانت مجزرة طاحت فيها رءوس ألفين من جيش العدو بينما نحن لم نخسر جنديا واحدا

فيتعجب الملك لهذا الانتصار الغريب ويسأل عن تلك العذراء

فيجيبه قائده . « انها فتاة مخيفة مرعبة ولكنها محبوبة جميلة . تقول ان الله قد أرسلها لترفع الحصار عن أورليان قبل أن يكتمل القمر . وهاهى قادمة »

فيريد الملك أن يمتحنها فيجلس النبيل دينوا مكانه ويقف هو بين الحاشية ويقف سائر النبلاء بجانبه . ثم تقبل جان فى خطى ثابتة ثم تدير النظر فيمن حولها وتأمر دينوا أن يترك مكانه لصاحبه الذى من أجله بعثت . ثم تدنو من الملك وتنحنى أمامه قليلا ثم تهب واقفة . فينظر القوم اليها فى دهشة ويسألها الملك . « كيف عرفتنى ولم ترى وجهى قبل الآن » فتجيبه جان بأنها قد رأته فى « محضر الاله » ثم تقول .

« انى فتاة فقيرة ولدت فى احدى قرى فرنسا (دوم ريمى) وقد سمعت كثيرا عن سكان تلك الجزر الذين يأتون لاستعبادنا وعلمت كيف أخذوا باريس ونهبوا المملكة فتضرعت « لام المخلص » أن تنقذنا من عار ذلك الاستعباد وأن تحفظ لنا مليكنا الشرعى . وكان بجوار قريتنا صورة للعذراء معلقة فى احدى أشجار البلوط المقدسة فكنت ألجأ الى هذه الشجرة أرعى غنمى فرأيت فى حلم من أحلامى وأنا نائمة فى ظلها ان العذراء المقدسة قد ظهرت لى فى ثياب

الرعاة حاملة فى احدى يديها سيفا وفى الاخرى علما ، ثم خاطبتنى قائلة : « انى أنا ـ ألا هي ياجان ! ولتتركى قطيعك هذا فان الله قد كلفك بعمل آخر ، ولتأخذى هذا العلم ولتحملى هـذا السيف لتأتى به على أعداء شعبي ولتقودى مليكك الى (ريمس) حيث تتوجينه » .
فقلت : « كيف أستطيع أن أقوم بهـذه الاعمال وأنا فتاة رقيقة لم أزاول فن الحرب قط » ـ فأجابت : « ان العـذراء الطيبة النقية تستطيع أن تأتى فى الارض بروائع الاعمال اذا لم يخضع قلبها للحب الارضى » ثم لمست جفنى بيدها ـ فلما رفعت وجهى رأيت السماء قد امتلأت بالملائكة الصغار يحملون الورود والزنابق فى أيديهم وينشدون عذب الاناشيد ويهزجون أحلى الاهازيج

« وهكذا ظهرت لى تلك العذراء المقدسة فى ثلاث ليال متوالية ـ وهى تصيح ـ « هي ياجان ـ ان الملك قد عينك لامر آخر » وفى الليلة الثالثة ظهرت غاضبة وألقت الى بهـذه الـكلمات ـ عليك أن تطيعى . ان عمل المرأة فى هذا العالم شاق عظيم يجب أن تطهرى بالتعاليم . وان من يخـدم هنا يمجـد فى السماء » . وما كادت تلفظ هـذه الـكلمات حتى ألقت عنها ثوب الرعاة فظهرت كأنها أضواء لامعة ثم أخذت السحب الذهبية تحملها شيئا فشيئا الى عالم النعيم »

فيدهش الـكل لهذا الحديث ولـكنهم لا يرتابون فيما سمعوا فان العمل قد سبق القول . ثم يأمر الملك أن تعين جان رئيسة للجيش . ويجيب دينوا : « سنطيعك طاعة عمياء . ان عين تلك الفتاة المقدسة الشبيهة بعيون الانبياء ستقودنا الى حيث نريد . وان هذا هذا السيف الشجاع سيحمينا من أشد الاخطار هولا »

لم يكن دينوا هو الذى ينطق بهذه الكلمات الحماسية التى تشيد بأعمال تلك العذراء الطاهرة . بل كان قلبه هو الذى يوقع أنشودة المجد والفرح على أوتاره ، هـذا القلب الـكبير الذى لم يخضع من قبل لسلطان الحب ، أصبح يتلظى اليوم شوقا لان يستقر على ذلك القلب الوديع الذى يستطيع أن يحمله ويفهم سره .

لقد أدت تلك العذراء رسالتها وعليها الآن أن تقررمصيرها . فهى التى حررت فرنسا وهى تستطيع أن تمنح قلبها لمن تشاء . فيكاشف الملك برغبته فيدعو الملك جان اليـه ويدور بينهم هـذا الحديث . .

دينوا . « ماذا يكون مصيرك أيتها العذراء المقدسة . فانك لا ريب ستكونين أسعد المخلوقات البشرية لانك محبوبة من السماء نقية طاهرة ؟ »

جان : « ان السعادة هناك عند إلهنا الذى فى السماء »

الملك : « ان سعادتك ستكون منذ الآن موضع تفكير المالك واهتمامه - انى أمجد اسمك فى كل أنحاء فرنسا وستباركك الاجيال القادمة - وهأنذا أنجز وعدى هكذا (تركع جان ثم يلمسها الملك بسيفه) قفى الآن - انك شريفة - انى أمجد مولدك وآباءك فى قبورهم؛ ان اعظم نبلاء فرنسا ليشعر بالفخر فى خطب يدك - ان زواجك سيكون موضع شغلى وتفكيرى »

دينوا (متقدما) : لقد اختارها قلبي وهى وضيعة مجهولة - ان هذا الشرف الجديد لم يزدها قدرا ولم يزدنى حبالها - هنا أمام مليكى والاسقف الطاهر أمد اليك يدى أيتها العذراء الرقيقة - وأتخذك زوجة لى اذا كنت تريننى جديرا بك »

الملك : «أيتها العذراء الطليقة الحرة كم من معجزات تضيفينها الى معجزات: لا شيء يمتنع عليك لقد أخضعت ذلك القلب الكبير الذى لا يزال متحيرا حتى الآن - انكما بطلا الميدان فى الفضائل والشهرة - قد سحقتما عدوى ووحدتما مملكتى وأرى أن كلا منكما جدير بالآخر - تكلمى أيتها العذراء ان قلبك الآن هو الذى يقرر»

جان : «ان اختيار مثل هذا النبيل لشرف لى ولكنى لم أترك

رعى الخراف وحياة الرعاة لأنال مجدا دنيويا أو لارتدى لباسا حربيا ولا لأتوج رأسي بأكاليل الملوك . ان عملي أبعد من هذا — هو عمل عذراء طاهرة . انى جندية فى جيش الملك ولن أكون زوجة لمخلوق فان »

الاسقف : « لقد ولدت المرأة لتشارك الرجل الحب . فعند ما تلبي نداء الطبيعة تنفذ بذلك ارادة السماء . فاذا ما أديت رسالتك اليوم فى الحرب ستلقين بأسلحتك غدا وتبحثين عن نوع من الناس أرق يشاركك عيشك بدل هذه الحياة العسكرية الخشنة »

جان : « أيها السيد المعظم انى لا أستطيع أن أحدد عمل الروح . ولكن عند ما يحين الوقت فان صوتها لا يبقى خافتا وسألبيه وهو الآن يأمرنى أن أتمم واجبي — ان سيدى لم يتوج بعد »

الملك : « اننا ذاهبون الآن الى ريمس »

جان : « دعنا . لا نتوان ان العدو يدبر خطط الايقاع بنا . ساقودك وسط جحافله »

دينوا : وعندما تنتهى رسالتك المقدسة وندخل (ريمس) منتصرين . ألا تسمحين أيتها العذراء الطاهرة أن . . . ؟

جان : ان أراد الله ذلك . فان عملى سينتهى عند هذا . ولا يبقى لى عمل فى القصور .

الملك انه صوت الروح الذى يتكلم الآن . ان الحب الملهم الذى فى قلبك صامت الآن . ولكنه سوف لا يبقى طويلا فى صمته . فاذا ما وضعنا سلاحنا وهدأت نفوسنا سيعود الفرح الى صدورنا وتستيقظ فينا تلك المشاعر اللطيفة وستستيقظ فى قلبك أيضاً وستبكين بدموع الشوق اللطيف . دموع لم تعرفها عيناك من قبل . ان هذا القلب الذى تحتله السماء الآن سيفتح غدا للصديق الارضى)

جان أتتحدث أيها الملك عن الرؤيا السماوية ومحو أثرها . أو تنحط تلك العذراء التى أرسلها اليك الاله الى تراب عادى . يا أعمى القلب . يا قليل الايمان . إن مجد الله يشع حولك . ولقد كشف لعينيك عن عجائب ولكنك لا ترى إلا امرأة عادية . أتجرؤ المرأة أن تلبس هذه الملابس وأن تحمل هذا السلاح وتكافح كفاح الابطال ؟ ألا سحقا لى وتعسا اذا خفق قلبي بحب انسان فان . إذاً لكان أجدر بى ان لم أكن ولدت . لا حديث الآن عن هذا . هيا الى العمل . إن عين الانسان التى ترعانى بالحب هى فى نظرى رعب ودنس »

الملك من العبث أن نستدرجها بعد الآن

جان : « دع الابواق تدوى . ان هـذا الركود يضايقنى . أشعر بدافع داخلى يدفعنى من هذا الجمود ويناديني لان أنجز عملى وألقى مصيرى »

ولكن جان وقعت فيما كانت تخشاه اذ خفق قلبها بحب الانسان الفانى . وان مصابها بهـذا الحب الارضى كان أعظم . اذ لم تحب ذلك القائد الفرنسى العظيم دينوا الذى قدم اليها قلبه الـكبير رهينة لحبه السامى الصادق . ولا غيره من النبلاء والضباط الفرنسيين ولا (ريموند) الراعى خطيبها الاول . بل أحبت انسانا أجنبيا عدوا لها . هو ضابط انجليزى (ليونيل) أسرته فى الحرب الاخـيرة وأبقت على حياته من أجل حبها له . ولـكن هذا الحب لم تكد تحس بحرارته حتى ابتعدت عن مصدره اذ عاد الضابط الى بلاده وعادت هى الى وطنها تحمل قلبا تتناهبه شتى النوازع ومختلف الاشواق .

عادت الى باريس انسانا بدون قلب وجسما بلا روح كأنها قبر متحرك لحبها الموءود . .

وليس افصح للتعبير عن تلك الثورة النفسية العنيفة التى أنزلتها من سماء الطهر الى أرض الفساد وأثارت كوا من أشجانها وقلبت كيان وجودها . وصيرت الحياة فى عينيها ظلمة وعماء تضل فيه روحها

على غير هدى ، بل جعلت حياتها هى عبثا وعدماء من حديثها هى وهى تناجى نفسها .

«لقد خفت صوت السلاح ورقدت عواصف الحرب وأعقب تلك المعارك الدموية أناشيد الفرح يرن صداها فى كل أنحاء المدينة ونواقيس الكنائس تدق معلنة سرورها فى هذا العيد ، وأقواس النصر تقام فى كل الميادين

إن «ريمس على اتساعها تضيق بالجماهير التى تتدفق اليها من جميع الانحاء والكل فكر واحد وشعور واحد. هو شعور الفرح بهذه الوحدة المقدسة

«إن فرنسا اليوم تستعيد مجدها القديم وتسجد اجلالا لمليكها العظيم . إلا أنا التى أوجدت هذه الافراح لا اشاركهم فيها . ان قلبي قد تغير واخذ الياس يستولى على . انه لا يزال يحن الى حرب الانجليز ولكن ارادتى تقف فى سبيلى . لقد انسللت من الجمع مفعمة حزنا لأخفى ذلك الجرم الذى يجثم فوق صدرى الان . ماذا ؟ هل اسمح لانسان بشرى أن يطوف بقلبي المقدس ؟ هنا حيث الأضواء الالهية قد تلألأت آلآن للحب الارضى أن يسكن فيها ؟ وهل احترق أنا منقذة الوطن ورسول الاله العظيم! أحترق الان من أجل عدو بلادى

إنى لاأتجاسر على ان ألقى ضوء السماء المقدس ولاأشعر بشناعةعارى

(نسمع أنغام الموسيقى ناعمة ثم تتلاشى شيئا فشيئا)

« الا سحقا لى - ان هذه الانغام المذابة تشوش مخى - ان كل نغمة تحمل فى رجعها ذكراه وصورته وهو واقف أمامى - آه لو ان الحراب لمعت اليوم ودوت الحرب وقعقع السلاح لعادت الى قوتى الاولى - ان هـذه الانغام الحلوة - وهذه الاصداء المذابة مسكرة مشجية - انها تذيب فى صوت رقيق كل شعور وان كل فكر يستدر الدموع من حزنى المرير)

ثم تستجمع بعض شجاعتها فتقول :

(أكان لى أن أقتله ؟ أكنت مستطيعة ذلك عندما حدقت فى وجهه . أقتله ؟ لا . بل كان لى أن أصوب سهامى الى صدرى . ولكن هل أعاقب من أجل انسانيتى . وهل الرحمة خطيئة . الرحمة ! وهلا كنت أسمع صوت الرحمة والانسانية عندما كانت الرجال تتساقط ضحايا سهامى ..

(أيها القلب الماكر انك تـكذب أمام السماء . ليس صوت الرحمة هو الذى يناديك الآن : لماذا قدرلى أن أنظر الى عينيه وأن أمعن النظر فى ملامح وجهه الجميل . يالى من تعسة بائسة . كان لى

أن أجهز عليه ولـكن قلبي لم يطاوعني ونصبت لى جهنم أشراكها

ثم تستسلم لحزن عميق :

كم كنت أتمنى أن تلك الاصوات لم تصل الى أذنى من خلال تلك الشجرة المقدسة . ياملكة السماء المقـدسة ليتك لم تظهرى لى خذى خذى تاجك فانى لايمكننى ان أدعيه لنفسى الآن . خـذيه فهو ليس لى . لقد رأيت السماء تفتح لى ابوابها . ولكن آمالى كانت لاتزال عالقة بالارض ولم تستطع أن تسمو اليها . لماذا ألقيت الى أيتها العذراء الطاهرة بهذا النداء الثقيل ؟أأنسل وأغلق قلبي على كل العواطف الرقيقةالتي خلقت لأشعر بها بطبيعتى .أيها الالهان الخالدين يحفظون تعاليمك إنهم لايشعرون ولا يبكون . فلا تختر مساعدةامرأة رقيقة لا .ولاروح عذراء راعية . هل كنت مشتغلة بالشئون الحربية والمعارك والكفاح؟ كـنت أرعى غنمى فى طهارة وسذاجةفوق سفوح الجبال الصامتة فأرسلتنى الى حياة القصور والحروب لأفقـد زهرة روحى اللطيفة . وأسفاه ! انى لأبحث عن مصيرى »

ثم تدخل عليها الملكة وتعانقها فى شوق عظيم ثم تسجدامامها فتدهش جان لهذا وتحاول ان تنهرها وهى تقول: «وهل نسيت نفسك ونسيتنى» ؟

الملكة : لا تمسكيني • إنه السرور العظيم الذى يلقى بى تحت قدميك • يجب أن أسجد شكرا للاله الذى أعبده مستترا فيك • إنك الملاك الذى سيقود سيدى الى ريمس ويتوجه هناك • كل ما لم احلم به قد تحقق • ان حفلة التتويج ستعد سريعا • كل هذا يبعث فى فرحا عظيما لا أستطيع حبسه • لكنى أراك رزينة متجهمة أتخافين فرحا ولا تشتركين فيه،ان قلبك باردلا يساهم فى هذا الفرح الشامل ، لقد رأيت السماء رائعة الجمال . مبتهجة لافراحنا . ان اللذات البشرية لا تحرك قلبك النقى أوه . ألا تحملين قلب امرأة . انزعى عنك هذه الدروع فقد انتهت الحرب لتختارى لك صديقا من نوع آخر ،اراك مقطبة الجبين: ان قلبي يرتجف خوفا منك

جان : « ماذا تريدين أن أعمل ؟ »

الملكة :أن تنزعى هذا اللباس وأن تلقى بهذا السلاح . ان اله الحب يخاف أن يقترب من صدر مغطى بالصلب! أوه ! كونى امرأة تشعرى بهذه القوة

جان . «ماذا ؟ أأجرد نفسى الآن من السلاح . سأكشف عن صدرى وسط المعارك لضربات العدو المميتة ولكن ليس الان ألا من جدار نحاسى سبعة أمثال هذا الجدار يحول بينى و بين مرحى و بينى و بين نفسى؟»

الملكة : « ان الكونت دينوا يحبك . ان قلبه النبيل يتأجج غراما وشوقا . ويتفجر حبا خالصا . انك تكونين سعيدة اذ تعرفين أن هذا البطل يحبك وتكونين أسعد لو أحببته . أتكرهينه لا . لا . كيف يمكن للكراهية أن تصل الى قلبك .. اننا لا نكره الا الذين ينتزعوننا من أحبابنا . ولكن ما من أحد يدعى حبك ان قلبك هادىء . فلو شعر .. »

جان : « ارحميني . اندبى مصيرى الممقوت . »

الملكة : « أى شيء يعوز كمال سعادتك . لقد أنجزت وعدك وحررت فرنسا وستقودين الملك الى كنيسة ريمس حيث تتوجينه . ان أعمالك العظيمة قد أكسبتك شهرة خالدة . ان الشعب يمتدحك بل يعبدك . واسمك الان شرف كل لسان . انك الاهة هذا الاحتفال . ان الملك بتيجانه وعرشه لا يفوقك جلالا وروعة !

جان : أوه . أأختفى فى أعماق الأرض

الملكة : «لماذا هذه العاطفة الحزينة ومن أين هذا الضيق الغريب . من منا لا ينظر اليوم دون أن يخاف اذا ألقيت عينيك الى الأرض . انى أشعر الآن بضآلتى بقربك . فأين لى فضائلك و بطولتك ليست شهرة فرنسا — وطنى . ولا جلال تتويج الملك ولا سرور

الجماهير المتجمعة يمس قلبي . انما شكل واحد .صورة واحدة مقدسة فى أعماقه . ليس به فراغ لأى شعور آخر. الاله وحده هو المعبود الذى يباركه الشعب ويمجده . ولأجله ينشر الزهور والرياحين . هو مليكى . هو حبي الصادق الوفى »

جان : « انك سعيدة . سعيدة حقا . إنك تحبين حيث الكل يحب . يمكنك أن تظهرى كل فرحك وسرورك فى غير لوم . فان انتصار وطنك انتصار لحبك . وان تلك الجماهير التى تزدحم اليوم تهتف وتصفق تشارككِ فرحك وتحييك . فأنت اليوم جزء من هذا الفرح الشامل . وما ترينه اليوم هو مجد حبك وعظمته »

الملكة (وهى تميل عنقها عليها) : « إنك تبهجينني . تستطيعين أن تقرئى ما فى قلبى . لقد أسأت اليك . انك تعرفين ما هو الحب لقد عبرت عن مشاعرى بصوت القوة . ان قلبى ينسى خوفه الان ويندمج فيك »

جان (وهى تجذب نفسها بعيداً فى قوة) : « أتركينى . أتركينى . اذهبي بعيداً . لا تتعبي نفسك بالتحدث الى . اذهبي وفى أعماق الليل دعينى أخفى خطيئتى . يا لتعسى ولبؤسى !! »

الملكة : « انك تخيفينني من جديد . انى لا أفهمك ولم

أفهمك . انك لا تزالين خافيــة على . من ذا الذى يستطيع أن يسكن روحك الطاهرة المقدسة ؟ »

جان : « انك أنت النقية المقدسة . فلو أنك رأيت دخيلة قلبى لوليت فراراً من العدوة الخائنة »

ثم يدخل دينوا باحثا عن جان لتحمل العلم و نسير أمام الملك الى ريمس فـترتجف جان وتصرخ بأعلى صوتها : « لقد حنثت فى يمينى ودنست اسمك المقدس » وتهم بالرجوع فيتزاحم القوم عليها ويلصقون بها العلم ويسيرون بها الى الكنيسة . ولكنها لا تكاد تصل الى الكنيسة حتى تندفع بين الجماهير وهى تقول : « لا أستطيع البقاء ان الارواح تطاردنى . أسمع الانغام كأنها رعد قاصف منظر القباب يخيفنى . يجب أن أنجو بنفسى . لقد تركت العلم ولن أمسه ثانية . يخيل الى أنى أرى شقيقتى أمامى كأنى فى حلم . فتتقدم اليها أختاها إذ كانتا قد جاءتا مع تلك الجماهير لتشاهدا حفلة التتويج فلا تكاد تصدق عينيها وتعجب أن يكون حلمها حقيقة . ثم تسألهما عن والدها وتأخذها الدهشة ويستولى عليها شعور جنونى فتقول أين أنا أخبرونى أكان كل هذا حلماً طويلا . ثم استيقظت الان . وهل أنا بعيدة عن قريتى . وهل حقا نمت تحت تلك الشجرة الملعونة

ثم استيقظت الآن وحولى تلك الوجوه المألوفة ، لقد علمت بكل هذه المعارك والحروب . ان هذه كلها لم تكن الا خيالات مرت أمامى ». فتجيبها أختها : إننا فى «ريمس» إن هذه لم تكن أحلاما بل أعمالا قمت بها . إرجعى الى صوابك . فتصيح جان :(تعالوا . دعنا نهرب . سأعود الى قريتنا . الى صدر أبينا . إن هؤلاء الناس يمجدوننى أكثر مما يجب . سأتخلص من كل هذه المظاهر الممقوتة التى كانت حائلا بينى وبينكم . وسأعود راعية كما كنت . وكعذراء متواضعة أقوم بخدمتكم وأتوب لأنى رفعت نفسى عنكم)

وإذ تنتهى مراسيم التتويج يتقدم من بين الصفوف رجل هرم هو (تيبو) والد جان . فيصيح فى الملك وفى الشعب : (أيها الملك المخدوع لا تظن أنك محفوف بقوة الله . أيتها الجماهير الساذجة لقد أنقذت بفنون جهنم . إنكم مجانين حتى هذا الاسقف العاقل ، اذ ظننتم أن إله السماء ظهر لكم فى شخص هذه العذراء الخاطئة . هناك فى تلك البقعة الملعونة تحت ظل الشجرة المسحورة مرتع الأرواح النجسة كانت تسكن هذه المشعوذة لاجل جاه دنيوى دعوها تكشف عن ذراعيها فسترون عليها علامات جهنم مطبوعة .) فتقف جان صامتة لا تفتح فاها ولا ترد عنها إتهام والدها ويضطرب

الشعب فيما بينه : ويدهش الملك والنبلاء من هذه المفاجأة الغريبة ثم يأمرها الملك أن تغادر المدينة آمنة فتنسل بين الجماهير التي ترتاع منها وتفر من وجهها وهي : تقول (الشيطانة الساحرة) : ثم يلحق بها «ريمون» خطيبها الأول ويدلجان في الغابات حتى يصلا الى كوخ أحد الحطابين فلا يكادان يدخلانه حتى يسمعا زوجة الحطاب تقص عليه قصة تلك الساحرة

ثم لا يكاد ابنهما يلمح وجهها حتى يصيح . « هذه هي ساحرة أورليان » فيرتاع الرجل ويفر هاربا وتتبعه زوجه وابنهما . فتخرج جان وريمون ويستأنفان سيرهما في الغابة . فيسألها ريمون . . (لماذ صمت أمام اتهام والدك !) فتجيبه جان . . (لقد استسلمت صامتة إلى مصيري لأني اعتقدت أن ما أراده أبي هو إرادة الله . ولست مخطئة في ذلك ولا حزينة . فلا ضير يلحقني . نعم إني شريدة . ولكني في وسط هذه البرية عرفت نفسي بعد أن تخلصت من ضوضاء الاحتفالات التي كانت تؤذيني . كان هناك صراع عنيف بيني وبين نفسي . كنت أتعس الناس عند ما كان الجميع يحسدني والآن لقد عدت الى نفسي وأصبحت هذه العواصف القوية التي تخيفك رفيقتي . لقد طهرتني كما طهرت العالم . أشعر في قرارة نفسي بهدوء

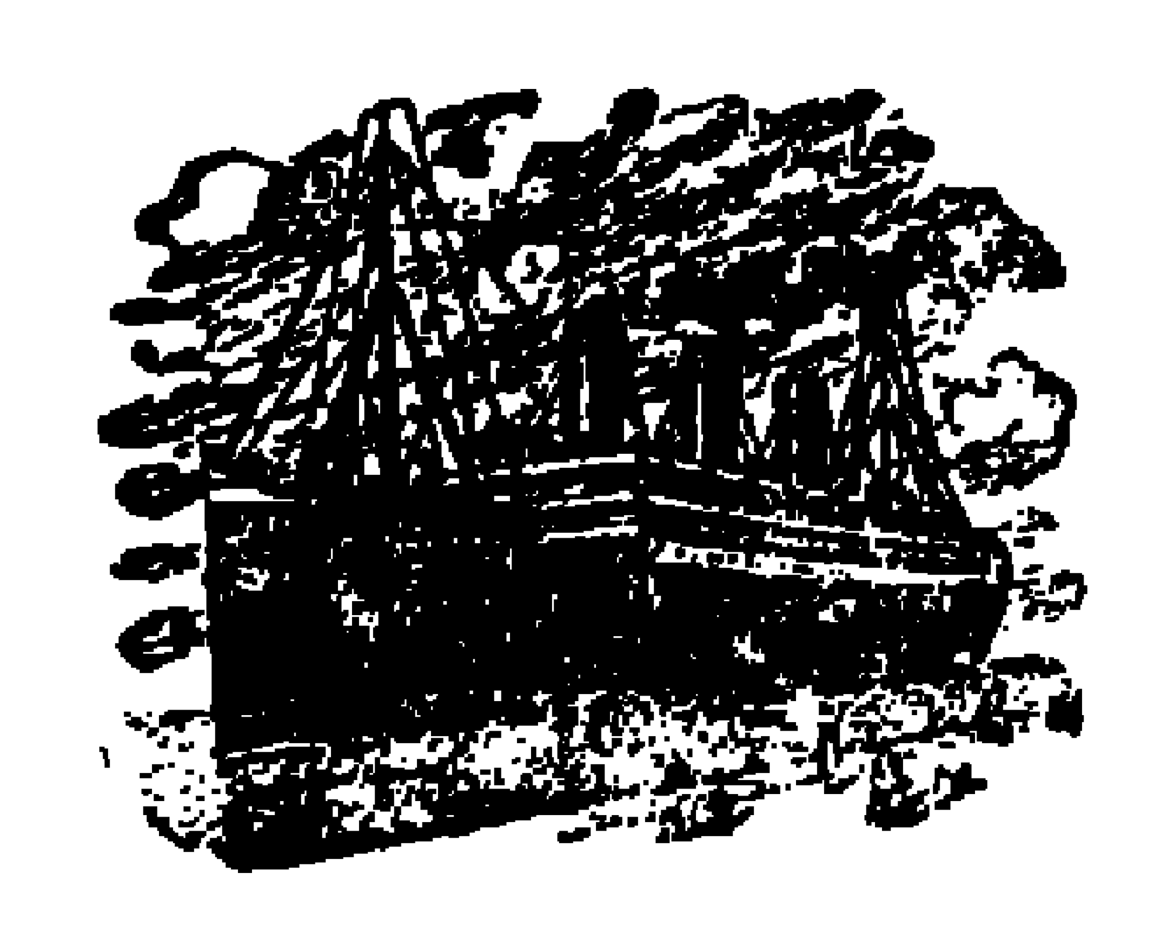
تام ـ لا أفكر فيما يأتى به الغد ـ سيأتى ذلك اليوم الذى تنتزع فيه من اسمى هذه الشوائب التى لحقته عند ما يدرك الذين طردونى الآن خطأهم ـ سيأتى ذلك اليوم الذى يعلو فيه الحق،

ثم تهاجمها فرقة من جيش العدو فيفر (ريمون) مذعورا وتستسلم جان هادئة فيذهب بها العدو الى ملكته ثم تلقى حبيبها (ليونيل) فيحنو عليها ويتركها فى رعاية الملكة ويذهب الى المعركة

ثم تسمع جان بانهزام جيشها وسقوط القائد دينوا وأسر الملك فتركع على ركبتيها وتصلى الى الله الرحيم أن يكون معها ـ ثم تضرب قيودها بيديها فتحطمها وتندفع بين الجند ملتقطة سيف أحدهم ـ وتذهب الى المعركة فيتراجع الجند أمامها مدحورا ـ وتنقذ الملك ثم تقع فاقدة الاحساس، فيظن الملك والنبلاء أنها ماتت ولكنها تعود بعد قليل تفتح عينيها وعلى شفتيها ابتسامة الفرح وتقول :

(وهل حقا أننى بين أصدقائى ؟ وهل يطردوننى ثانية إنهم يشفقون على الآن . لقد صفا عقلى ورجعت إلى حواسى . إنى أرى ماحولى . هذا مايكى وهؤلاء هم حملة الاعلام إنى لا أرى علمى . أين هو ؟ بدونه لا أتجاسر أن أظهر ، لقد سلمه إلى إلهى ويجب أن أضع أمام هذا الملك . يجب أن أراه هنا . لأنى حملته حقاً)

ثم يقدم إليها العلم فتمسك به وتهب واقفة غير مستندة إلى أحد والعلم فى يدها والسماء تشع بأضواء وردية . ثم تقول : « ألا تنظرون قوس قزح هذا ؟ إن فيه مقام العذراء وحولها الملائكة يترنمون فى ثياب بيضاء ، وعلى صدرها ابنها الخالد تضمه وتحنو عليه وهى تمد الى يديها الطاهرتين الآن فى حنان وحب . ماذا يكون من شأنى ؟ إن السحب البيضاء تحملنى . لقد أصبح درعى الثقيل ثوبا بأجنحة . سأمتطيه . سأطير . سينتهى العالم سريعا . ما أقل الحزن ! ما أعظم الفرح ! » ثم يسقط العلم من يدها . وتقع هى على الارض ميتة . ويقف الكل صامتا خاشعا . ثم يأمر الملك أن تلقى عليها الأعلام جميعها فى رفق حتى تستر جسمها كله ... ! !



*

*

المراقب

للقصصي الروسي المعاصر تشيرلكوف

اعتادت ماريا أن تذهب كل مساء إلى المحطة تتوسم وجوه الركاب باحثة عن ابنها « نيكولاس » فيقفز قلبها فرحا كلما وقعت عينها على شاب فى لباس الجامعة

ولكنها كانت فى كل مرة تتفقد ابنها فلا تجده فتندفع إلى الى العربات وتحدق النظر فى الجمهور الواقف على الرصيف ؛ وهى لاتكاد تصدق عينيها ، فتسأل وهى حائرة قلقة :

— الى أين يذهب هذا القطار ؟

فيجيبها رجل : الى موسكو

— وهل جاء من « كيف » !

— نعم

فتصوب المرأة بصرها جهة « كيف » ثم يعلو وجهها ابتسامة

حزينة رقيقة لتلك الصورة العزيزة التى ستطالع عليها من وراء ذلك الضباب والدخان — صورة « نيكولاس » العزيز وهو فى لباس الجامعة — ولكن هذه الصورة الحلوة الجميلة سرعان ماتختفى من ناظرها فتهم بالرجوع إلى المنزل وقد فاض بها الحزن حتى كاد يحبس أنفاسها حتى اذا مادنت من البيت استيقظ فيها ذلك الأمل من من جديد فتتوهم أنها ستجد ابنها هناك فتسرع الخطى وتندفع إلى الباب فى شوق وخوف ، ولكنها لاترى أمامها الا زوجها الشيخ « ستيبان » يسير فى الغرفة فى خطى متثاقلة ، وهو يسعل سعالا حادا فلا يكاد يرى زوجه وحدها حتى يشيح عنها ويدمدم بهذه الكلمات : « كفاك ذهابا وانتظارا ! » ثم يصمتان — فكلاهما كان غارقا فى الافكار مثقلا بالهموم — يكاد الدمع ينبجس من عينيه ؛ ولكنهما كانا يقاومان الحزن ويتكلفان الصمت

* * *

كان يتردد على منزل ستيبان صيرف المدينة وهو رجل ثرثار مدع فيقص على الزوجين كيف يعامل المسجونون السياسيون فى السجن ، وكيف يحبسون فى حجرات ضيقة ذات فتحات ينصب منها الماء حتى تتقلص أبدانهم ، وتجمد دماؤهم عروقهم، وتقف قلوبهم عن

الحركة . فتضطرب ماريا لهول هذا الكلام ، فتصيح خائفة وجلة : إلهى ! إلهى ! فيحاول الصيرف أن يهدئ ثورة الأم الحزينة فيقول : ولكنهم قد يطلقون سراح البعض منهم ثم يمضى فى حديثه الطويل المتصل ، وهو يشوه الحقائق ويلفق الروايات حتى يسرى الخوف والرعب فى قلبى الزوجين المفجوعين فى وحيدهما العزيز فيقضيان ليلهما على فراش دونه شوك القتاد

* * *

لم يمض على هذا الحديث بضعة أيام حتى كان نيكولاس واقفا بالباب ، فلم تكد ماريا تراه حتى أسرعت اليه وضمته الى صدرها والدموع تنهمر على خديها ، ثم أخذت تقبله ، وهى لا تكاد تصدق أن « كوليا » قد عاد اليها ، فكانت تنظر اليه وقد اندفعت الى رأسها آلاف الأسئلة تريد أن تلقيها كلها قبل أن تسمع جواب الأول منها !

— هل أنت فى صحة جيدة .

— أحقا أطلقوا سراحك .

— الهى ! هل أنت حى حقا . !

فنظر إليها فى ابتسامة حزينة مضطربة وقال : « لقد كنت

يائسا من لقائك يا أماه ؟ »

— ولـكنى كنت أذهب الى المحطة كل يوم اذ لم نستطع أن نفـكر فيما حدث لك

— الأمر عادى ، لقد سجنت بضعة أشهر فى حصن ..

— وأنقذك الا له ؟ لقد صليت من أجلك ياعزيزى . هل عفوا عنك ؟

— فأجاب كوليا فى ابتسامة رقيقة : لا . ليس عفوا تاما ، ولـكنهم أرسلونى اليك مراقبا »

— وماذا هم صانعون بك ؟

— انى لا أعرف على وجـه التحـديد ، ولـكنى سأدخل الجامعة ثانية فى بحر سنتين

— أظنك فى حاجة الى الطعام ؟ إنك ضامر هزيل ؟ انتظر قليلا فلن أغيب عنك

* * *

كـان كل شيء على ماهو عليه : فالغرف نظيفة مرتبة والستائر مدلاة على النوافذ وشجرة « الليلاب » لاتزال تغمر الباب بأكاليلها ومائدة الطعام ذات الغطاء الأبيض لاتزال قائمـة وسط الحجرة .

فذكرته هذه بحياته الماضية البعيدة ، فالمحبرة كما تركها على المكتب ومحفظة الأوراق لاتزال عالقة بالحائط . والأوز يتبختر فى فناء المنزل وهو يضم فراخه الصغيرة الصفراء إليه . فابتسم نيكولاس لهذه الأشياء كأنه قد رآها بالأمس

كانت السماء صافية سافرة . والهواء رخوا لينا ، فوقف الشاب فى إحدى النوافذ يرقب الطيور وهى تهرع الى أوكارها . فأبصر شبحا يدب من بعيد يثير العثير بقدميه وعيناه الى الأرض، والعصافير تفر من أمامه وهى تشقشق وتتناقر

فاطمأن نيكولاس لهذه المناظر الجميلة المتعددة — منظر الشارع الهادىء المقفر والحمائم الطاهرة والطيور المغردة ، والأوز الصارخ الفرح ، والغرف النظيفة المرتبة — وشعر بوحدته وهدوئه ، وسرعان ما أدرك أن له حياتين متميزتين متباينتين : إحداهما هناك حيث كان يعيش ، والأخرى هنا بين أحضان والديه . وأن حياته البعيدة أصبحت تلوح له كأنها قصة خيالية قد قرأها فى أحد الكتب ، وأن حياته فى القرية حياة حقيقية غير متغيرة — كقانون الطبيعة

— أتحب السمك ياعزيزى كوليا !

فالتفت كوليا حوله فرأى أمه واقفة وهى تترنح من فرط

السرور : وقد شمرت أكمامها استعدادا للعمل : وقال:

— السمك حسن ! إنى لا أهتم كثيرا بالأكل

— اذن أطهى لك بعضا منه . وسرعان ما عادت حاملة طبقا به سمك ووضعته على المائدة وهى تقول :

أيها العصاة — علام العصيان ماذا تريدون

ولكنها لم تنتظر الجواب فلم تكن تريد أن تعرف ماذا يريدون بل أسرعت الى المطبخ لترى الزبدة التى كانت على النار. ثم عادت وهى تقول : «سيأتى والدك الآن ، فلا تغلظ له . قد يغضبك ولكنه لا يحتفظ بغضبه عليك طويلا. إنه شيخ قد عاش طويلا، بينما أنت لا تزال تحبو فى الحياة، وليس العمر المجرب الطويل كالسير فى المراعى والحقول

— ومتى يعود أبى ،

— كعادته كل يوم فى الساعة الثالثة

— وأين يعمل الآن ،

— فى نفس المكان الذى كان يعمل فيه

— فى مناقصات الحرس — ومرتبه كما هو لم يزد . لقد ضعفت أعصابه حتى كادت يده تقف عن الكتابة . فقال نيكولاس وقد غمره الحزن والألم : شىء مرعب ،

— نعم مرعب ياعزيزى كوليا فقد أصابه شلل كاد يقعده عن العمل . كنا نؤمل أن .. ولكن ماذا .. انا لا نستطيع ان نعيد الزمن من جديد . كل قبل ان يبرد الطعام . فأخذ نيكولاس يأكل فى تراخ وكسل اذ كان يفكر فى حال والديه وينظر الى أمه كيف ابيض شعرها ويبست يداها واحدودب ظهرها . بينما هى كانت تديم النظر الى الساعة تترقب عودة ستيبان تتنازعها مشاعر الخوف والفرح ، فقد كانت تتعجل مجيئه ليرى ابنه الوحيد ، ولكنها كانت تخاف أن يخرج الغضب بالأب فيسىء الى ابنه . فعملت : على تهيئة الجو لهذه المفاجأة الغريبة فقالت : «ان والدك يأتى متعبا من العمل ضجراً بالذباب الكثير الذى يضايقه فى المكتب والطريق الطويل الذى يقطعه على قدميه ، فأرجو أن تحتمل غضبه وضيقه

أما نيكولاس فقد كان يفكر فى هذه المقابلة يخشى الصدام معه . والحقيقة أنه لم يرد أن يفهم أبدا بأنه كان فى الامكان أن يسلك غير ما سلك اذ كان يشعر دائما أنه على حق ، ولكنه كان لا يزال مضطربا يضيق بالخجل الذى يفسد عليه حياته ، ثم نظر من النافذة فرأى والده يخطو متثاقلا كما لو كان أحد الاعيان الملحوظين فى القرية ، وقد أمسك فى يده شمسية ضخمة ، وتأبط محفظة كبيرة

— ماذا يحمل أبى !

فأجابته أمة فى لطف : إنها محفظة الأوراق التى يحملها دائما حتى ولو لم يكن فيها شيء ، كذلك الشمسية ان لم يكن هناك مطر. فلما دنا الرجل من الأوز اندفعت اليه مشرئبة باعناقها تعض ساقه ، توقف فى مكانه وشمخ برأسه وأشار اليها بأصبعه فانكمشت الأوز وهزت ذيولها وعادت الى أحواضها . ثم خرج نيكولاس الى الباب ولكن ستيبان لم يسرع فى مشيته اذ كان قد علم بمجيئه وهو فى مكتبه بل قال وهو يبتسم : أه ! أه! هل أتيت ، ولم يرد أن يظهر فرحه الذى غمر قلبه لذلك الشاب الذى كان يظن أنه عاق مسيء حتى أنه قد رآه فى الليلة السابقة فى حلم مروع ثقيل كأنه مسوق الى ساحة الاعدام وقد جاء ليودع والديه فتقدم اليه كوليا بوجه شاحب وشفتين مرتجفتين وقال «يوم سعيد ياأبى ،» فأجابه أبوه: سعيد ياولدى ، ثم عانقه عناقا قصيراً وسعل سعالا عاليا . ثم أخذ يسأله عن مجيئه . ثم جاءت ماريا فرأت الأب بشيح عن ابنه ، فعملت على تخفيف حدة ذلك الموقف فقالت «احمد الله أيها الاب فقد عاد الينا ابننا فى صحة جيدة ، وهذا كل ما تريد هيا الى الغداء . هل ضايقك الذباب اليوم ،

فلم يجب الزوج بل قام الثلاثة الى المائدة ، وأخذ الاب يلقى على

ابنه بعض الاسئلة القصيرة المقتضبة فقال :

— وعلى هذا أخرجوك ؟

— نعم

— اذن كنت مجرما ؟

— نعم

— وتعود الينا مراقبا ؟

— نعم

— وماذا تريد أن تعمل الان ؟

— سأستأنف دراستى

— أى انك تبدأ من جديد ، فاذا ماطردت ثانية رجعت الى الأول

— فأجابت الأم : لم هذا الكلام الان ، لكل شىء نهاية

— فقال الأب : حسن ، وستأتى نهايتنا قريبا . ولكن لماذا طردت ياولدى ؟

لقد اشتركت فى الثورة ؟

— حسن جدا . ولماذا حبسوك ؟

— لاأعرف

— اسمــع يابنى ، إنى مضطر أن أقـول لك انى لم أكن أنتظر هذا العمل منك . لقد كنا مضطرين الى دفع نفقات المدرسـة ثمانى سـنوات وأجر المدرس الخاص والكتب والملابس ، وكنت أمنى نفسى بأن هذا كله سيرد الى . ولكن ظهر لى الان أن ماعملته قـد تلاشى كالفحم المحترق

وترى الأم أن الحديث قداخذ يشتد والجو يكفهر فتحاول أن تلقى بعض الماء على النار المتأججة فتقول « .كل انسان لديه أولاد ، وهو مضطر الى هذا العمل .ليس هناك مايسوغ هذا الاحصاء ... الان » فأجابها الزوج وهو يســعل سعالا عاليا : «انى لاأحصى عليه شيئا ، فقد قربت نهايتنا،ولا ننتظر منه شيئا . لقد عملنا على أن يقف على رجليه . ولكن علام التحدث فى هذا وكل انسان هو الخالق لسعادته »فلم يقو كوليا على سماع باقى الكلام بل ترك أمه تعتب على أبيه وهى تقول :ما كان ينبغى لك أن تهاجم هذا الشاب بهذه السرعـة

* * *

خرج نيكولاس الى الطريق يعبث بالأوراق المتســاقطة قرب الطريق ويفركها فى يده ثم يغيب فى تفكير عميق وهو واقف أمام ذلك البحر اللانهائى من القمح الأخضر ، ثم استولى عليه نوع من

اليأس العميق اذ كان كل شيء حوله صامتا لا يسمع الاقنابر الحقل تغنى بأصوات مرتعشة متقطعة حتى بداله أن هذا العالم تافه ثقيل ، وأن أهم مشاكله هى الصحة ، فان كانت الصحة جيدة حلت مشكلة الحياة كلها . فيكفى أن تترك قلبك يتأمل هذه الحقول النضرة والاجواء الفسيحة والسحب البيضاء . كل شيء سيكون كما كان من قبل ، وسيأتى الشتاء ويعقبه الصيف ، وستخضر الحقول ثم تغمرها الثلوج ، وستغرد القبرات وستقام الأسواق وستعج القرية بوفود الفلاحين

ثم أخذت القرية تصحو على أصوات الماشية وهى راجعة الى حظائرها ، فثغاء الشياه وخوار الثيران كان يختلط بأصوات النساء وهن يصحن على فراخهن لتذهب الى أوكارها ، وأسواط الرعاة تهوى فى الفضاء كأنها طلقات نارية ، ثم امتلأ الجو بسحائب التراب ومالبث الظلام أن لف القرية فى سكون مطبق عميق

* * *

عاد نيكولاس الى المنزل فاستلقى على مقعد كبير فى الحديقة وأخذ يستعيد فى مخيلته صور ماحدث له فى (كيف) وسرعان ما لاحت له صورة تلك الفتاة الغريبة حاملة له اللذة والألم ، فتذكر يوم

أن كـان يقيم فى سجنه الضيق الثقيل وقد اعتقد أن هذا العالم قد نسيه حتى أمه ووالده ، اذ دخل عليه السجان يقول : (زائر قد جاء اليك ،) فهب نيكولاس واقفا وسار خلف السجان فى ممر طويل مظلم قد فتحت فيه (الزنازين) على أبعاذ متساوية تخيل اليه أنها حديقة حيوان مرقومة الابواب وخلف كل باب أحد هـــذه الحيوانات الضارية

من يكون الزائر ياترى ؟

أيمكن أن تكون أمه ، لا ، انها لاتعلم بسجنه .

قد يكون أحد رفاقه . ولكن كل رفاقه فى السجن أو فى المنفى ، وفوق ذلك فانه لايسمح بزيارة أحد من رفاقه . اذن لم يأتنى أحد .

ثم سأل السجان : من جاءنى ،

فأوسع السجان الخطو ولم يجب ، فقال نيكولاس : (أمحـرم علينا أن نتحدث معكم ، قد تكون مخطئا فى استدعائك إياى

فنظر اليه السجان وقال فى هدوء : خطيبتك ؟

— خطيبة ؟ ثم سكت طويلا وقـد شعر أن قلبه يثب بين أضالعه . وأراد أن يضحك عالياً من هذه الـكلمة الغريبة . ولـكنه تمالك نفسه وسار وهو يفكر فيمن تكون هذه الخطيبة

وأخيراً وصل إلى حجرة صغيرة كئيبة اللون لم يكن بها إلا نافذة واحدة قد ثبتت فيها قضبان من النحاس ، فنظر نيكولاس إلى هذه النافذة فرأى فتاة فى ثوب بنفسجى بديع و وقبعة من القش قد زينتها بأزهار الربيع . وقد وقف بجانبها ضابط طويل الشارب تلمع حرابه فى الفضاء كلما لوح بها أو انتقل من مكانه

فقالت الفتاة فى ابتسامة رقيقة عذبة : نهارك سعيد . فرد عليها الشاب التحية ، ثم أخذ كل منهما يرمق الاخر ، وعبثاً حاول نيكولاس أن يتذكر هذه الفتاة إذا كان قد رآها من قبل . كان وجهها مغطى بقناع خفيف قد ألقت عليه أسلاك النافذة ظلا رقيقاً ، فلم يستطع أن يتبين قسمات وجهها فقال لها فى استحياء : أتسمحين أن ترفعى القناع

فرفعت الفتاة القناع فسحرته عيناها ، وعلت وجهه حمرة الخجل وخفض بصره . لا . لا . إنه لم يرها من قبل

وهنا تنبه الضابط لحديث الشاب ، فكان كلما حركت الفتاة يدها لوح هو بسنانه وسعل سعالاً عالياً يريد أن يفهمها أنه لا يزال يقظاً لما يدور بينهما

— لقد نسيت بكل تأكيد حبيبتك (جالياً)

فأجاب نيكولاس فى غموض : لا . ثم ابتسم فجلجلت ضحكة

قوية من الفتاة ، وتألقت أسنانها من خلال الأسلاك

فلوح الضابط بسنانه وقال : « هل تلزمان الهدوء قليلا »

فقالت الفتاة فى حدة : أحرام علينا أن نضحك ؟ ولا أن نصرخ ؟ .. » ثم سألت نيكولاس إن كان يضحك فى سجنه

فأجابها : « إن الانسان هنا لا يحتاج إلى الضحك ولا إلى الصراخ . أظن أن العالم فى الخارج جميل جداً الان »

فأخذت جاليا تصف له قدوم الربيع وفيضان الأنهار ومنظر الطيور وتفتح الأزهار ثم قالت : سأحضر اليك بعضاً منها المرة القادمة . أتحب البنفسج ؟

— نعم وسأضعها فى زنزانتى وستذكرنى دائما .. بك

قال هذا بصوت راجف وهو يحدق فى وجه تلك الفتاة أى وجه جميل هذا ؟

— لا تحزن . سأجيء اليك كل سبت

ثم دقت الساعة اثنتين وانتهى زمن المقابلة . فقال السجان وهو يفتح الباب :

— تفضلى . فقالت الفتاة :

— لا تحزن ! وداعا تذكر أنى ذهبت أن لك أصدقاء

أما نيكولاس فقد تبع السجان وهو مطرق إلى الأرض وعيناه تطفران بالدموع ، ولم يكد يصل إلى زنزانته حتى أوصدها وراءه وأخذ يغنى فى صوت عال : « هبونى حرية السير . هبونى حرية الحب »

فسمع صوتاً ينهاه عن الغناء والرقص لم يعرف مصدره ، فقد ظن أن الباب يتكلم فأمسك عن الغناء ، وقال :

والحب أهو مسموح به هنا ؟

فلم يجبه أحد

وهل يسمح بشعورى هنا ؟

لم يكن هناك من يجيبه

* * *

قضى نيكولاس ذلك اليوم فرحا مغتبطاً ، وقد نسى أنه مسجون وهو يطوف بزنزانته منشدا كوحش كاسر قد ضاق بقفصه

لقد كان هذا اليوم يوم ميلاده

* * *

ثم جاء المساء ، مساء السبت

وهناك فى الأفق البعيد أخذت أجراس الكنائس تدق فبعثت

فى نفسه الهدوء ، وأيقظت فيه ذكريات الطفولة الحلوة ، ففتح النافذة وأخذ ينظر إلى تلك السماء الصافية ، وقد أخذت الشمس الغاربة تعكس أضواءها على جدران السجن ، والحمائم ترفرف بأجنحتها فى الفضاء ، فأيقظت فى قلبه شجون الذكرى والألم ؛ وذكرته بالحرية ، ثم اشتد عليه الحزن وزادت به الوحدة وشعر بحاجته إلى التحدث إلى نفسه : من تكون جاليا ؟ ثم استبد به الشوق فتناول عصا صغيرة ، وأخذ يخدش بها على جدران الزنزانة :

« النجوم تضىء لامعة فى السماء الزرقاء
ومن خلال النافذة يهب عبيق الربيع
وعلى الأرض النائمة يجمعون عرائس الأحلام
السابحة على أجنحة الفضاء ! »

ولكنه عاد فمحا ما كتبه واستلقى على سريره يفكر فيمن تكون تلك الفتاة الجميلة

قضى نيكولاس الأسبوع كله يترقب يوم السبت ، وقد شعر أنه لن يأتى . لقد عاش من أجله ولم يفكر فى شىء غيره ، لم يهدأ فى نومه إذ كان يهب مذعوراً وهو يردد اسم السبت . وأخيرا جاء يوم السبت ، وكان يوما مطيراً ، ولكن نيكولاس لم بشعر بذلك ، إذ

كان قد نسى كل العالم فى ذلك اليوم

فلما أحضروا الغداء صاح : « هل من زائر ؟ » ولكنه لم يتلق جواباً، فبقى الطعام كما هو، وبقى هو ينتظر ، وأخيراً جاء السجان بالعشاء يحمل معه باقة من البنفسج قد ذبلت أزهارها ، فارتجف نيكولاس، وقال وهو يتناولها فى نغمة حزينة يائسة : وزائرى ! !

فابتسم الحارس ومضى

فنظر نيكولاس إلى الازهار، فرأى أمامه جاليا تقتطفها وتقدمها إليه فى ابتسامتها المشرقة العذبة فدفن وجهه فيها ، ثم أخذ يتنسم أريجها ويستنشق فيها عطر الربيع وعبيق الحرية ويرضع أوراقها كأنه طفل غرير ، ويحنو عليها محاولا أن يبقى على حياتها بدم شبابه وقلبه ، ولكن هذه الأوراق ما لبثت أن اسودت وتغضنت وماتت ، ولم يبق منها إلا واحدة وضعها بين صحائف كتابه

وإذ هو يفتح هذا الكتاب أبصر تلك الزهرة الذابلة ، فأخذ يفكر فيمن تكون جاليا الفاتنة !

استيقظ نيكولاس عند سماع همس غريب ، فأصغى إليه ، فاذ هو صوت والده يصلى لله، وقد سمعه يردد فى آخر صلاته : « كذلك ابنى الخاطىء خادمك نيكولاس » ، ثم قام الرجل ونفض عنه

التراب ، وجاء إلى ابنه يوقظه ، وهو يقول : « استيقظ . يجب أن تذهب اليوم إلى الشرطة ؛ وإلا قبض على أنا . عليك أن تمضى ذلك التعهد المكتوب هناك ، ثم تنصرف » ثم فتح الشيخ النافذة ، فمرت بالحجرة نسمة الصباح المنعشة ، وسمع طيور الصباح تغرد على قنن الأشجار ، فاطمأن إلى هذا الهدوء ، وهذا الجمال ، وأغمض عينيه من جديد محاولا ان يتذكر حلمه الذاهب البعيد فشعر كأن نوراً كنور الصباح المبكر يضيء قلبه المظلم الحزين . آه لقد ظهرت له جاليا فى حلمه بملابسها البيضاء وقبعتها المزركشة بأزهار الحقول ، ثم انحنت عليه وهمست فى أذنه قائلة : « استيقظ . يجب أن تذهب إلى الشرطة . » ولكن هذا لم يكن همس جاليا بل كان صوت أمه ماريا تذكره بما لم يكن قد نسيه ؛ فقد أصبحت كلمة « البوليس » تستثيره ككلمة أب . فهب غاضباً وارتدى ملابسه وخرج مشيعاً من أمه بأرق الدعاء وأخلصه ، فقد كانت نفس الكلمة تثير فى قلبها هى أيضاً نوعاً من الألم الغامض الخفى

* * *

خرج نيكولاس قاصدا مركز الشرطة ، فلم يكد يصل إلى الباب الخارجى حتى هب الناس وقوفا وتهامسوا فيما بينهم عله أن يرحمهم

هذا القادم من ألم الانتظار والشكوى . ثم دخل بيتاً مظلما يريد أن ينقض تفوح منه الرطوبة وتنتشر فيه رائحة الفيران الميتة وقد جلس النساء على الارض الرطبة المبللة ، ووقف بجانبهن حارس عملاق يفتل شاربه ويغازل صغارهن ، فسأل نيكولاس عن سبب انتظار هؤلاء الناس فعلت أصوات متعددة مختلطة : « نحن الشهود أيها الرفيق » ثم سار إلى غرفة الانتظار ، فسمع صخباً وضجيجاً ، فمن صرير الاقلام إلى وقع أقدام الخدم وهم يغدون ويروحون إلى خشخشة الاوراق . وأخيرا أدخل على رئيس البوليس الذى كان جالسا إلى مكتبه منكبا على أكداس من الاوراق ، ولكنه ما لبث أن اعتدل فى كرسيه ونظر إلى نيكولاس وقال : (حسن . ماذا تريد ؟ إيه . المساواة ؟ إن هذا لا يمكن للشاب أن يناله أنظر انك ضامر كالموميا وأنا بدبن كالفيل . فى الناس الذكى والغبي — الفقير والغنى

— هذه هى سنة الطبيعة . .

— وأنت . .

— إنى لا أريد شيئا

— يجب أن تنصرف عن مجالس المهيجين وألا تستمع الى خطبهم الثورية . إنى لا أحدثك كرئيس للبوليس ولكن كشخص عاش

ولديه كثير من الخبرة والتجارب . أتظن أنى لم أحـــلم بالمساواة ؟

إلهى . لقد حلمنا بها جميعنا ونحن شبان ولـكنا كنا مخطئين. والآن إنك مراقب هنا . يجب أن تـكون تحت أنظارنا دائما . ثم خرج نيكولاس بوجه شاحب ممتقع وجسم مرضوض مجهـد وفى عينيه بريق الـكراهية وشرر التمرد والثورة

* * *

أمضى نيكولاس بقية اليوم يتجول على شاطىء النهر حتى جاء الليل فتسلل الى كوخه الصغير الذى أقامه فى حديقة المنزل ، وهناك استلقى على مقعد كبير ووضع يديه على وجهه وأخذ يستمع إلى أصوات الاجراس التى كان يحملها إليه السكون العميق، ثم لا تلبث أن تذوب فى جوف الفضاء . ولـكنه مالبث أن سمع صوتاً ضعيفا يقول له : « ألم تنم ياعزيزى ؟ » فالتفت نيكولاس الى مصدر الصوت فرأى أمه واقفة بالنافذة وهى تئن وتبكى

— بربك لا تبكى من أجلى يا أماه !

— وكيف الصبر يا ولدى العزيز ؟

فتركها الابن وذهب الى كرسيه واستسلم للبكاء . فأخذت أمه تتلمس باب الـكوخ حتى اهتـدت اليـه وهناك أسندت رأسها الى

ظهر ابنها وأخذت تبكى وتنتحب . وأخيراً قال الابن فى صوت راجف حزين : « يجب أن أذهب بعيداً . ماذا أعمل ؟ » إنى لا أعرف . لا أستطيع احتمال أكثر من هذا . لن أذهب ثانية الى البوليس . بل يجب أن أذهب إلى مكان آخر

— ولكن ألا ترحم والدك ؟ إنه يصرخ الآن من الألم . ألا ترحم شيخوخته ، اكتب التعهد للبوليس . اعمل ما يطلبه منك والدك

فهجمت الذكريات الاليمة على نيكولاس وصاح :

— لا ، لا ، لن أعمل شيئا . سأذهب الى مكان آخر

— الى أين يا عزيزى كوليا . إن والدك سيضطر أن يجيب عنك

— لا ، لا ، لن أذهب

وفى الصباح وجد نيكولاس ملقى فى مقعده ينام نومة الرجل المجهد الذى فرغ من هموم العالم وأعباء الحياة

ووجد بجانبه كتاب وعليه زهرة البنفسج الذابلة .

*

الساحر

للقصصي الروسي المعاصر تشيرِكوف

كانت المدينة فى هياج وذعر ، وكان الاضراب سائداً فى المعامل والمصانع قد اندلع كالنار تسعفها الريح حتى عم سائر الأنحاء ، وفرق الفرسان من الشرط تخترق الشوارع — كأنها رجال المطافىء الذين اعتادوا أن يأتوا مسرعين ، ولكن بعد فوات الفرصة — بوجوه ساهمة مهمومة ينقلون الخطى على قرع الطبول كأنهم رجل واحد والألق يسطع من حراب بنادقهم وهم يلوحون بها فى الفضاء ، ثم ينفلت بينهم أحد القوازق فى جلده العارى إلا من الشعر كأنه أبله مجنون فيهوى الناس بعضهم على بعض متدافعين إلى مختلف الجهات مخافة أن يطأهم بتدميه

بقيت المدينة على تلك الحال من الصخب والاضطراب ، فواجهات الحوانيت تلقى بأضوائها المختلفة ، وجموع الناس تتزاحم

على الارصفة فى خوف وقلق ، والعربات تتسارع فى الشوارع فى صراع وعنف . وبات الناس يتوجسون خيفة من كل شىء ، فان صفر شرطى فى صفارته أو انفلت أحد القوزاق فى الشارع ، أو نزت برأس عربيد نزوة الشجار والعبث ، استولى على قلوبهم الخوف والهلع فيندفع بعضهم إلى مكان الحادث ويولى البعض الآخر الادبار طالباً الأمان فى مجازات الحوانيت ، ولكن الأمان من أى شىء ولم يقف أحد على السبب ،

لقد كانت جموع العمال تروح وتغدو على الأرصفة ، وئيدة الخطى ساهمة الوجوه تتكلم فى همسات خفية مع من يقابلها من الرفاق ، ثم تحدق بعين المقت والحفيظة إلى ذلك الشعب المترف وهو يخطر فى لباس فاخر ويشيح بعيداً عن ذوى الخلقان الممزقة والوجوه الشاحبة المريضة والأيدى الغليظة القذرة التى تشوه جمال الشوارع النضرة التى كانت تفيض بهجة وسحراً فى ذلك اليوم الخريفى الجميل الذى كانت فيه أوراق الأشجار المغروسة على أحياد الطرق الفسيحة تلقى أشعة ذهبية — كأنها تستقبل قبلة الفراق من الشمس الغاربة — على تلك العربات ذات الطلاء الوهاج ، بينما مراكب الترام بأجراسها المجلجلة ، والسيارات بأبواقها الصارخة ، والدراجات

الغادية الرائحة تغمر المسالك والدروب

كانت تلك الكتل البشرية تلوح كأنها حجيج غير منتظر قد جاء من عالم آخر يخطو بين أناس مترفين ، فتجنبوا ملامسته أو الاقتراب منه خيفة أن تمسهم منه لوثة أو ينالهم من أطرافه وضر. ثم مالبثت تلك الجموع أن تفرقت أباديد كأنها سرب من الكلاب انضا عند ما ها جمها فرق القوزاق الراكضة فسرى الخوف إلى جميع القلوب،

— أمى : هل هؤلاء الناس عمال ؟

— نعم . نعم . . . امض فى طريقك ولا تتلفت حولك

— ولكن لماذا يهرولون هكذا ؟

— خوفاً من الشرط . امض ولا تتكلم

— لماذا لا يتركهم يمشون على مهل مثلنا ؟

— إنه لا يسمح لهم بذلك

— لماذا ؟

— أوه ! أرجو ألا تثقل على . أعطنى يدك وسر فى طريقك وإلا . . . فالسوط . . . فأمسك (سرج) بيد أمه وأخذ يجر رجليه خلفها وقد امتلأ قلبها رعباً من تلك الجموع المتدفقة حتى سرى

إلى الطفـل الصغير الذى كان يحدق فيما حوله وهو ذاهـل مأخوذ

— وهل هم أشرار ياأمى ؟

— من ؟ من ؟

— العمال ،

— لاأدرى فنهم الطيب ومنهم الخبيث . إنهم لا يريدون أن يعملوا

— أهم كسالى ياأمى

— نعم . نعم . ولـكن هيا . وإلا كنت مثلهم

— أهم أنجاس ياأمى ،

— وفى تلك اللحظة كان الفرسان القوزاق قد ركضوا بخيولهم وصفر رئيسهم صفيرا عالياً ولوح بسوطه فى الفضاء فدوى كالطلق النارى ارتجفت له قلب الأم ، فأسرعت الى، إحدى العربات الواقفة ودفعت فيها ابنهـا الصغير ثم ألقت بنفسها فيها دون أن تسـاوم صاحبها على الأجر بل دفعته من الخلف وصاحت فى صوت مختنق خائف :

— اسرع ،

— ولـكن الى أين سيدتى .

— هناك ، الى الأمام : ياله من ضيق ! أدر سريعاً

— لاتخافى سيدتى . إنهم لن يقتربوا منا .

— وما كادت العربة تنعطف الى الشارع الآخر حتى عاد الهدوء الى قلب الأم ، فعادت الى حديثها الأول :

— تذكر أنى سوف لا أدفع لك أكثر من عشرين كوبكا.

— إن هذا قليل ياسيدتى .

— إذن ننزل . قف . سنأخذ الترام .

— أنصحلك أن تبقى حيث أنت ياسيدتى فان الترام سيقف بعد قليل

— من قال هذا ؟

إن العمال سيضربون اليوم . أعلم هذا من قبل .

وعندئذ كانت جماهير العمال قد اقتربت منهم فدفعت الأم السائق دفعة قوية فمضى فى طريقه ، بينما الابن ينظر إليهم فى خوف واضطراب فيلوذ بأمه شيئاً فشيئاً .

— إنى لا أفهم لماذا يهتمون بهم كل هذا الاهتمام ، فان كانوا يريدون أن يعملوا فليدعوهم يقطعون الشوارع جيئة وذهوباً ؛ سرعان ما يعضهم الجوع ويرجعون عن عزمهم .

فأجابها السائق . إنك على حق فى هذا ياسيدتى ، فان الجوع

بغيض ثقيل . ثم أدار وجهه عنها وأخذ يعبث بشعرات ذقنه ولكنه مالبث أن التفت إليها ثانية وقال : « يمكنك أن تروضى حيوانا بالتجويع ويمكنك أن تعملى هذا مع أى إنسان آخر ولكن الاساءة للرجل الفقير خطيئة لاتغتفر والان من يكسونا أيتها السيدة اذا ما بلى معطفك الثمين وتآكلت شملتى ؟

— لاتهتم يارجل ما دام معك المال الكافى . فان لم يشتغل عمالنا اشترينا مايلزمنا من الخارج .

— ولكن ماذا تعملين لو وقفت قطارات السكة الحديدية ؟

— هذا لغو . إن القطارات لن تقف أبداً . من يسمح بهذا ؟

— من يدرى ؟ إنهم يشيعون أنها ستقف حالا .

— فأنصت «سرج» الى الحديث الذى دار بين السائق وأمه وحار فى أمر أولئك الناس الذين يطعمونه ويكسونه وفى الوقت نفسه يهربون من رجال الشرطة . لقد اشترت له أمه معطفاً جديداً للشتاء فلفه فى أوراق ووضعه على ركبتيه يخفق له قلبه فرحا كلما خطر له أن ما من انسان يستطيع أن ينتزعه منه

— وهل صنعوا معطفى الجديد هذا يا أمى ؟

فأجابه السائق : لقد صنعوا كل شىء أيها السيد الصغير ، مامن

شيء إلا و كان من فضل أيديهم .

فغضبت الأم من هذا الكلام وشدت ابنها من كمه وقالت له : اسكت لا ينبغي لك التحدث معه . أما السائق فقد مضى يتفلسف في نفس الطريقة حتى ضاقت به الأم وصاحت في وجهه غاضبة : « وأنت أيها الرجل يجب أن تزج في السجن »

فسكت الرجل عن الكلام وألهب جواده بالسوط فأخذ يطوى الطرقات حتى وصل الى المنزل .

وهكذا رجع سرج والشكوك تملأ رأسه في حقيقة أولئك الناس الذين يدعون « العمال » فلم يكد يستقر في منزله حتى نادى أخته « سونيا » وهمس في أذنها :

— لقد رأينا اليوم بعض العمال ، لقد رأيناهم حقاً !

— ماذا يشبهون ؟

— إنهم .. حسن .. إنهم يشبهون الفلاحين

ومنذ ذلك اليوم لم يعد سرج يتحدث كلما نزل الى حديقة المنزل يلعب مع أخته إلا عن أولئك الناس الذين عطلوا المصانع وأضربوا عن العمل ، ولكنهما لم يصلا الى رأي يرتاحان إليه : أهم أشرار أم أخيار أما في المنزل فقد كانوا أشرارا وأما في الحديقة

فقد كانوا أخيارا

وأخيراً ذهب سرج إلى البواب وسأله :

— ولـكن هل يستطيعون أن يوقفوا مصنعاً .

— من السهل جدا ياسيدى الصغير .

— كيف يتسنى لهم هذا

— بأن يدعوا البخار يخرج أو يتركوا المصانع قاعاً صفصفاً

— وبدونهم لا يشتغل المصنع ؛

— كيف يشتغل من دونهم ؛

— وبدونهم لن أحصل على معطف جديد ؛

— لن تحصل

— وسترتى الصغيرة ؛

— كذلك سترتك الصغيرة و « بنطلونك » وقميصك ؛

فستضطر أن نسير كما ولدتك أمك .

— عاريا . : . . أوه . يالك من أبله . إن أمى تحضر لى كل هذه الأشياء من الخارج .

— عليك أن تنتظر إذن حتى تصنع ، ولـكن ماذا تعمل لو حدث اضراب عام فى السكة الحديدية .

— أيمكن أن تقف القطارات عن العمل .

— هناك إشاعة بأن القطارات ستقف .

— وماذا يكون مصير والدى . كيف يعود إلينا .

— أوه ! ربما يمتطى عصاً .

— اسكت عن هذا الهراء . سأبلغ هـذا إلى أمى التى سوف تجزيك عليه

ثم غاب فى تفـكير عميق ، وأخيراً جذب كم معطفه الجديد . وقال :

— وهل حاك العمال هذا أيضاً .

— نعم . لقد صنعوا كل شىء . إن أمك لم تعمل أكثر من أن أوجدتك فى هذا العالم .

* * *

لم يمض على هذا يومان حتى كان الترام قد وقف عن السير . واحتجبت الصحف عن الظهور ، وأغلقت الحمامات أبوابها وانطفأت المصابيح فى الشوارع وتعطلت القطـارات عن السير ، وعم الهلع سائر المحطات حتى أخذ الناس يتوقعون شللا عاماً فى حركة المواصلات بين ساعة وأخرى

كان مقدراً أن يصل والد (سرج) فى ذلك اليوم ، ولكنه لم يأت فقلقت الأم وأشاحت بوجهها عن كل من بالمنزل ، ولم يسمح لسرج أن ينزل إلى ردهة الدار ؛ فكان يقضى الساعات الطوال فى إحدى النوافذ يأكل قلبه شوق ملح ليقف على ما كان يجرى فى الشوارع

— وهل سيأتى أبى حالا إلى المنزل يا أمى

— إنه لا يستطيع ذلك ، ثم أخذت تلعن الاضراب والعمال والوالد أيضاً

— أحقاً يا أماه أنهم يستطيعون

— يستطيعون ماذا

— أن يمنعوا السفر بالسكة الحديدية

— يظهر أنهم يستطيعون ، لا تثقل على . ثم ترقرق الدمع فى جفنيها وهاجت نفسها حنقاً وغضباً ؛ أما سرج فقد أدار رأسه إلى النافذة وأخذ ينظر إلى المارة فى شىء من الاهتمام والخوف ، ثم همس قائلا :

لو استطعت لقتلتهم جميعاً

ولم يأت المساء حتى كانت الشوارع قد أقفرت من المارة

فأغلقت الحوانيت وأقفلت النوافذ بالمصاريم الخشبية ، وأخذ رجال الشرط والقوزاق يطوفون فى الطرقات لايقفون إلا فى الأمكنة التى أوقدوا فيها النيران ، فلم يستطع الابن أن ينام بل كان يقفز من فراشه فى موهن الليل ويتسلل حافيا إلى النافذة ليرى ما كان يجرى فى الشارع

كانت ألسنة النيران تندلع فى الفضاء وأشباح مهولة من الناس تتحرك حول النيران الحمراء كأنها وحوش ضارية تدور حول فريستها ... فيحس الابن برعدة تتمشى فى جسمه فينكمش راجعاً إلى فراشه وقد توهمهم وحوشا جائعة سوف تنقض عليه وتشويه فى تلك النيران المستعرة ثم تلتهمه التهاما ، فينزوى فى فراشه الناعم الدفىء وهو يصيح : أمى . أمى . إنى خائف مقرور .

— لماذا لم تنم . ولماذا قمت من فراشك الآن .

— إن النار فى استمرار دائم يا أمى وهؤلاء الناس لايزالون أمام نافذتنا

— نم ولاتخش شيئا . آه لو يأتى والدك .

— أمى .

ماذا بنى العزيز .

أريد أن آتى إليك . إنى خائف

— مم ، بنى المحبوب ؟

— الساحر ،،

— أى ساحر ؟

— أشكال مختلفة

— إذن فلتأت إلى

فقفز سرج من فراشه فرحاً وجرى إلى سرير أمه وقبض على يدها وقد اختبأ تحت الغطاء

ثم همس قائلا : «إنهم يستطيعون أن يعملوا كل شئ»

وسرعان ماغابت الأم فى النوم من جديد تاركة ابنها يطل برأسه من تحت الغطاء وينظر إلى الحائط فيرى الأطياف الحمراء التى تعكسها نيران الشارع المستعرة فيستولى عليه الخوف ثانية فيلقى بالغطاء فوق وجهه ويعود يفكر فى أولئك السحرة الاخيار والاشرار وفى أولئك الناس المدعوين عمالا :

أهم أخيار أم أشرار؟

وفى الصباح جلس إلى المائدة ليتناول طعام الافطار ولكنه لم يجد الكعك الساخن الذى اعتاد أن يراه كل يوم بل وجد خبزاً ناشفاً

بارداً لا يغرى على الاكل . فصاح : هات لى بعض الكعك، لماذا تقدمين لى هذا الخبز القذر ؟ ثم أخرجه الغضب عن نفسه فألقى بسلة الخبز بعيداً دفعاً لتلك الاهانة التى لحقته من والدته :

—أشكر الله يا «سيد» سرج على هذا الخبز الان

ماذا ،عليك ببعض الكعك . أمى ، لمادالم تأت لى بالكعك اليوم

— ولكن أين لنا الان ياعزيزى سرج وقد أغلقت كل المخابز

— لماذا ،

—لان جميع العمال مضربون

— العمال أيضاً ، ثم حك وراء أذنه بيده وقال :

— وماذا نفعل بدون الكعك ،

— سنفكر في حيلة

— ولكن ألا يستطيع المحافظ أن يجبرهم على خبز الكعك ،

— لا ياعزيزى سرج ، إنهم لا يخافونه

— ألا يخافون المحافظ ،،

— إنهم لا يخشون إنسانا قط

إذن فهم ذوو بأس شديد

— بيدهم كل شيء . فلتأكل هذا الخبز اليابس الان فسوف لا تجده قريباً

— إنى لاأستطيع أن آكل الخبز الأسمر

— نعم ، ولكنك ستفرح به غداً

— لماذا ؟

إلتاث الامر على سرج فلم يعد يدرك أى نوع من الناس هؤلاء الذين لا يخافون المحافظ ولا يخشون إنساناً قط ولكنهم مع ذلك يفرون من وجوه القوزاق ورجال الشرط . ما العمل . أيوقفون المصانع ويعطلون الترام والقطارات والصحف .ويسلبونك الكعك ثم الخبز الاسمر ثم لا تعمل شيئاً لهم . ثم أخذ يستعيد فى ذهنه صور الساحرات والسحرة الذين قرأ عنهم فى القصص الخرافيه العديدة وتذكر قلانسهم المسحورة التى تخفيهم عن أعين الناس فلا يمكنهم أن يقبضوا عليهم فاذا أمرهم المحافظ أن يعملوا لبسوا تلك القلانس المسحورة وغابوا عن العيون .

ثم سرى القلق من الشوارع إلى البيوت وشاع الخوف فى قلوب كانت من قبل آمنة مطمئنة فانقلب نظام الاسر واضطر أصحابها إلى تغيير عاداتهم والحد من مطامعهم واختفت مباهج الحياة من المدينة كلها وفقد الناس هناءة العيش . وأخيراً تسلل الخوف إلى تلك القصور المنيفة حيث كان يقيم سرج وأمثاله فأغلقت الابواب

وأحكمت الاقفال ووقف البوابون مع أمامها يتبادلون الحديث مع الحراس والعسس وهم ينفخون فى صنافيرهم . وفجأة انقطعت الكهرباء عن منزل سرج فنادى أمه قائلا : « فى الكهرباء خلل يا أمى »

ـــ أضىء حجرة الاستقبال

ـــ وهذه أيضاً

ثم جاء الخادم وأخبر سيدته أن هناك اضرابا عاما فعلينا بالشموع

وعلى هـــذا شمـل الظلام المنزل كله لا يظهر فيه الا أضواء الشموع الباهتة المضطربة التى كانت تنعكس على المقاعد و (البيان) فتلوح فى أغطيتها وستائرها كأنها جثث فى أكفانها قـد غابت فى تفكير عميق وبيناهم كذلك إذ جاءتهم الانباء المزعجة يحملها الخدم الذين كانوا يتحدثون فى غرفتهم الخاصة

« إنهم يشيعون أن المياه ستنقطع ، وقـد سمعنا الآن أن حفلات الجنائز ستقف ، ولن يكون لحم فى السوق غدا ، ولو استمر الحال على هذا اسبوعا واحدا فان قحطا هائلا سوف يجتاح المدينة»

استمع «سرج» الى تلك الأخبار المزعجة وهو ذاهل مشدوه ، فقد ظهر له أن العامل هو الممثل الاول لهذا الدور وسرعان ما انبثق فى ذهنه أن العامل ما هو الا ساحر، ساحر ذو قوة غريبة يمكنه أن

يأتى كل شىء . فلو أراد لاستأنفت القطارات سيرها ورجع أبى الى المنزل وعادت الكهرباء تضىء كما كانت ، فيعود للغرفة بهاؤها ورواؤها . ولو شاء لكان لدينا الآن كمك كثير ساخن ، وإن لم يشأ فلن يجرى الماء فى الانابيب ولن يكون هناك شاى أو حمام . إنه لا يخاف انسانا ولا يخشى سلطانا . يا له من ساحر .

لقد كان الصبي واثقاً من هذا فلم يمض أسبوعان حتى حدثت العجائب فى يوم واحد . فقد استأنف الترام سيره وفاضت الشوارع بالانوار الكهربائية الخاطفة وعادت الصحف الى الظهور ورجع الوالد الى بيته فركب معه احدى العربات اخترقت بهما الشارع العام فراى السحرة قد تجمعوا كتلا زاخرة مبتهجة يحملون الاعلام الخفاقة وينشدون الاناشيد العذبة دون أن يتصدى لهم شرطى أو يروعهم قوزاقى

فتاق الطفل إلى الخروج الى الشارع ليراهم بنفسه فقال :

— أمى لقد عاد السحرة يخطرون فى الشوارع دعينى أخرج لاراهم

— انك لا تستطيع

— انهم ليسوا أنجاساً بل أطهار الآن . أليس كذلك يا أمى

ثم مضت عدة شهور كان فيها كل شيء حسنا فعاد للبيت مرحه القديم وجنته المفقودة . ثم تصادف يوما أن ذهب الوالدان الى احدى الملاعب وخرجت المربية لقضاء حاجة لها ، وانصرفت الاخت الى عرائسها ولعبها بينما الجدة كانت لا تزال طريحة الفراش . فأحس الطفل بشيء من الضيق اذ لم يكن هناك ما يلهيه أو يسرى عنه فأخذ ينتقل من غرفة الى أخرى فى تراخ و كسل

— جدتى ماذا أعمل . .

— فلتدلك ساق ، فان الالم عاودنى فيها

— إنى لا أحب هذا . فهو عمل تافه ثقيل. ثم تركها وانصرف إلى أخته ولكنه لم يكد يرى عرائسها حتى تناول واحدة منها وكسر ذراعها وولى هارباً إلى المطبخ ليرى الطاهية الجديدة ، ولكن الخادمة لم تسمح له بالدخول فقال لها :

— ولكن ماذا أعمل إذا كنت وحيداً ؟

— ليس فى المطبخ ما تلهو به

— ولكن من ذا الذى يتكلم هناك ؟

— إنه زوج الطاهية

— إنه مسل

— لماذا ؟ إنه رجل عادى . عامل

— أزوج الطاهية عامل ؟

— نعم

— ساحر يجب أن أدخل اليه

— لا . انى أشكوك إلى المربية وأخبر أمك بذلك إن فعلت هذا

— إذن فأنت كاذبة . سأخبر أمى أنك أكلت القشدة

إنك كاذب فى هذا فقد التقطت ذبابة فقط

ثم تشاجرا معاً ، ولكن الطفل لم يجرؤ مع ذلك على دخول المطبخ فبقى واقفاً ببابه متردداً فى الأمر حتى جاءت الخادمة وفتحت الباب فأسرع يختلس النظر اليه فاستطاع أن يسمع صوت الساحر ولكنه لم ير الرجل نفسه ، ثم استبد به الشوق الملح والرغبة القوية فعزم أخيراً على الدخول . ولم يكد يرى الخادمة تبعد قليلا حتى صاح «أشكرك اللهم» ثم اقترب من الباب وأخذ يفتحه شيئا فشيئا بيد المكنسة حتى انفتح على مصراعيه ولكنه لم يستطع أن ينظر إلى المطبخ دفعة واحدة ، فوقف قليلا مطأطىء الرأس حبيس النفس حتى استجمع من شجاعته وفتح عينيه فرأى رجلا قد ارتدى ثوبا باليا وجلس على مائدة صغيرة يلتهم طعاما ساخنا يتصاعد منه البخار

وهو يتلفت حوله فى خوف وحذر ، وقد أمسك الطبق بيده كأنه يخشى أن ينتزعه منه غيره . فاشرأب الطفل بعنقه ثم تلفت حوله وقال : «ولكن أين الساحر» لم يكن هناك غير الخادمة وهذا الرجل أيحتمل أن يكون هذا الرجل هو الساحر الذى يخافه ؟

ثم قويت رغبته فى رؤية ذلك الساحر ، فاندفع إلى المطبخ ، فقفز الرجل واقفا وقد سقطت الملعقة من يده ، فقالت الخادمة :

لاشىء ، إمض فى أكلك . فلن يذيع السيد الصغير شيئا

فأجاب سرج . أى شىء ؟

— لا تخبر أباك أو أمك بأمر هذا الرجل الذى يتناول الحساء إنها فضلة من طعام قديم!

— حسن

إنه جائع فيجب أن ترحمه أيها السيد الصغير

— من .

— إيه : هذا الرجل زوجى

— زوجك .

فألقى عليه الطفل نظرة شزراء وهو واقف فى قوام نحيل يرتجف خوفا وفرقا ، ولكنه ظنه ساحرا حقيقيا قد لبس هذه الصورة

الزرية الكئيبة ثم قال كذلك أنت . إنك ساحر .. إنى أعرفك

من ؟

أنت ! أنت !

— إنى عامل ياسيدى الصغير ولكنى لا أجد عملا

— ولكنك ساحر ... إنى أعرفك . تستطيع أن تعمل كل شىء .. لقد أتيت كل تلك الأضرار ، ولكن حذار أن تعود اليها ثانية . إن ضوء الشمعة باهت كئيب ولاأحب إلاالكعك مع الشاى

— إنى لم أعمل شيئاً يا سيدى الصغير وسأترك هذا المكان حالا

— ولكنك غير مخيف كما كنت أظن . لقد حسبتك هائل الجسم مارد القامة عابس الوجه . قل لى : ألم تسحر نفسك .

— أتسخر منى لأنى لا أجد فتات الخبز .حرام ياسيدى حرام!

— ولكنى كنت أظنك أعظم من هذا وأنك مرح طروب فرأيتك ترتعد فرقا وأنت تتناول طعامك . إنى لا أخافك بعد ذلك

ثم انسل الطفل إلى الممر العام ووقف قليلا ، وهو متأهب للجرى إذا هم الساحر بمطاردته ، ولكن لم يحدث شىء من هذا بل كان هناك رجل واقف بجانب أحد الجدران يشهق شهيقاً عالياً ثم يجفف عينيه بطرف كمه . فصاح

ساحر ويبكى !. إنه الجزاء العادل . .

— لماذا لم تدع أبى يعود الينا . لماذا قطعت عنا الكهرباء .

— لماذا حرمتنا من الكعك الساخن.

— فلتنل الآن جزاء ما قدمت يداك

ثم صرخ صرخة عالية دوت فى جميع أنحاء المنزل

مرحى . مرحى . . .

ثم أسرع إلى مربيته فى نشوة المنتصر الفائز وهو يقول :

لست أخافه بعد اليوم . .



*

قصــة ملخصة

الرفاق

للأديب الروسى العظيم ماكسيم جوركى

دوى صوت المصنع مؤذناً بانتهاء العمل ، فلفظ المصنع ما فى جوفه من الكتل البشرية — كما يلفظ الموقد بقية الرماد المتروك — كأنها كتل من الدخان المتكاثف الأغبر . ونزل العمال إلى الشوارع متزايلى الأوصال منهوكى القوى بعد أن التهم المصنع حياة يومهم وامتصت الآلات عصارة أبدانهم . ولكنهم ماكادوا يتنسمون هواء المدينة حتى سرت الحياة الى أصواتهم النائمة وتمشت الحركة فى أجسادهم الخائرة وشاع فى قلوبهم الأمل الجديد . فقد انتهى عمل اليوم وهاهم أولاء يعودون إلى منازلهم حيث العشاء الشهى وأفراح الحانات ومباهج الراحة ، حيث يسمرون ويمزحون الى منتصف الليل فيعودون إلى منازلهم يمزقون الفضاء بضحكاتهم الصاخبة ، ثم

يأوون إلى فراشهم بعدأن يصيبوا زوجاتهم الـكثير من سبابهم ولطمهم .

هـكذا عاش ذلك العامل المكتئب « فلا سوف » ذو العينين المرتابتين الضيقتين والابتسامة الخادعة الخبيثة . . كان أمهر صانع للاقفال وأقوى رجل فى القرية ، ولـكـنه كان سايط اللسان سىء الخلق فـكرهه الكل وخشيه من بالمصنع ، إذ كان فى عينيه بريق الشر وفى قبضته القوية نذير الموت فضجر به ابنه ونفرت منهزوجه وأصبح البيت ثورة مشبوبة وعراكا مستعراً .

ثم مرض الرجل فعاده الطبيب ، ولـكن الوحش الـكاسر لم ينخذل أمام العدو الجبار ، فصرخ فى وجه الطبيب (فاتذهب إلى الشيطان أيتها الحشرة الحقيرة ، لست أهاب الموت . »

وفى صبيحة اليوم التـالى لفظ نفسه الاخير بينما صفير المصنع يوقظ النائمين . . ثم أدرج على نعش بسيط بفم فاغر وجبينمقطب ووجه حزين عابس .

وسار وراءه زوجه وابنه ثم كابـه الصغير وأحد أصدقائه فى فى الشراب وبعض متسولى الضاحيـــة . . ثم انصرف مشيعوه تاركين كلبه الامين يمطس فوق قبره

العشاء ! العشاء !

بهذا صاح الابن « بافيل » وهو يضرب المائدة بقبضة يده .

فأسرعت الأم اليه وجلست بجانبه وطوقت رأسه بذراعها وأمالت رأسه إلى صدرها ، ولكن الابن الثمل دفعها فى عنف وهو يصيح « أسرعى ؛ أسرعى ! » فحاولت الأم أن تهدىء من ثورته وتفهمه عاقبة الشراب ولكنه قاطعها قائلا « وسأدخن أيضاً . أين غليون والدى ؟ » ثم اعتراه دوار شديد فحملته أمه إلى فراشه ووضعت منديلا مبللا بالماء فوق جبينه ، وأخيراً عاد إلى نفسه ونظر إلى أمه من خلال أهدابه الغارقة فى الدموع وقال « يظهر أن وقتى لم يأت بعد. إن غيرى يشرب ولا يشعر بشىء . أما أنا فانى مريض». فأجابه بصوت أمه الضعيف « يالك من عائل إذا أنت بدأت الشراب من اليوم » . فأسبل الابن عينيه وقال « كل إنسان يشرب » فصعدت الأم أنفاساً حارة وقالت « لقد شرب أبوك من قبل وأذاقنى كثيرا من العذاب ، فلترحم أنت أيها الابن أمك المسكينة» فسرح الابن فى ذكريات الماضى القريب وأخذ يستعرض أمامه حياة أمه البائسة وما أصابها من أبيه من ظلم واضطهاد ! ! ثم طلب ماء فذهبت تأتيه به فلما عادت وجدته قد نام ، فوقفت بجانبه لحظة ويدها

ترتجف بالكوب فوضعتها على المائدة وسجدت أمام الصورة المقدسة المعلقة بالحائط وأخذت تصلى فى سكون وصمت .

ثم أخذت أصوات السكارى الصاخبة تصافح أذنيها من جديد

* * *

عاش بافيل كغيره من العمال . فاشترى قميصاً ورباطا للرقبة متعدد الألوان وعصا جميلة ، وصار يتردد على المجتمعات الليلية ويختلط بالناس . ولكنه لم يمض فى هذه الحياة الجديدة وقتاً طويلا حتى انصرف عنها وأخذ يرسم له أسلوباً خاصاً به ، فقلل من زيارة زملائه وانكب على دراسة الكتب فى شوق ودهشة بعد أن كان ينفر منها أشد النفور .

ألست سعيداً يابافيل ؟

نعم إنى على ما يرام .

انك آخذ فى النحول .

فصمت ولم يجب

هكذا كان يبدأ الحديث بينهما ثم ينتهى فى اقتضاب وسرعة حتى اذا ما أصبح الصباح شرب الشاى فى صمت ثم يمضى الى

عمله ولا يعود الى منزله حتى المساء . فيغتسل ويتناول عشاءه ثم يهرع الى كتبه يقرأ الى ساعة متأخرة من الليل .

دهشت الأم لهذه الحالة الغريبة وبدأت تخاف عليه أن يفقد الكلام من جراء عزلته هذه ثم أخذت تعجب لذلك التطور المفاجىء الذى طرأ على نفسيته اذ لم يعد ينتهرها بل أخذ يلاطفها ويعنى بنظافة جسمه وحسن ملبسه . ففكرت الأم أن لا بد فى الأمر سراً .

انه شاب لا يزال حدث السن لا يمرح ولا يلهو كأنه راهب معتكف الى صومعته . من يدرى ؟ قد يكون هذا السهوم والوجوم فاتحة للحب الاول . ولكن الحب يحتاج الى مال وهو لا يبقى شيئاً مما يكسبه لنفسه . انه شىء غير الحب ..

« ٥ »

عاد بافيل الى منزله فتناول عشاءه ثم أرخى ستائر النافذة وشرع فى القراءة ، فدنت منه أمه وهمست فى أذنه قائلة أريد أن أسألك ماذا تقرأ

فألقى الكتاب الى جانبه وقال : اجلسى ياأماه .

فاستلقت الام الى جانبه وتأهبت لسماع شىء غريب مروع يجلو سر المسألة ، وبدون أن يلتفت اليها أخذ يحدثها فى صوت منخفض

ولكنه قوى مؤثر ، أقرأ كتباً لا يسمح بقراءتها لأنها تتحدث عن الحقيقه — حقيقتنا — حياة العمال — لقد طبعت خفية واذا ضبطت معى فسيكون السجن مصيرى ـ أزج فى غيابات السجن لأنى أريد أن أعرف الحقيقة . .

فأحست الأم أن شيئاً قد جثم على صدرها يمنعها من التنفس ، فحدقت فى ابنها كأنه شخص غريب لا تعرفه . لقد كان صوته مغايرا منخفضاً عميقاً نفاذاً . ثم غمرها شعور الحب والاشفاق على وحيدها فقالت .

ولماذا تفكر فى هذا يابنى

فرفع الابن رأسه وقال فى صوت هادىء رزين : أريد أن اعرف الحقيقة : ثم لمعت عيناه ببريق القوة والعزم . فأدركت الأم أن ابنها قادم على أمر عظيم غامض . لقد اعتادت أن تقتنع دون جدل أو محاورة لثقتها فى العناية الآلهية وأن كل شىء مقدر لا بد منه فماذا تفعل الآن . لم يسعفها الكلام بل أسعفتها الدموع التى فاضت بها عيناها والحزن الذى أفعم به قلبها .

فأراد الابن أن يطمئنها فقال لها فى رقة وحنان : لاتبكى ياأماه ، بل فكرى فى حياتك التى تحيينها الآن . لقد تحملت كثيراً من

من أذى والدى . والآن أدرك السبب . مسكين . لقد كان يثأر لشقائه منك ، لقد كان شقياً حقاً ، عمل ثلاثين عاما ، بدأ العمل ولم يكن فى البلدة الا مصنعـان ، والآن لقد كثرت المصانع وكثرت ضحاياها

أنصتت الأم فى ذهول وصمت . لقد كانت عيناه تلقيـان ببريق لامع جذاب ، ثم اقترب الفتى من أمه ومال الى المائدة وأخذ يفضى اليها بجملة حاله .

وفى خفة الشباب وحماسة الطالب الفخور بمعرفته المطمئن الى عقيدته أفضى اليها بكل شىء . ثم رفع اليها بصره فرأى وجهاً ساهماً تحار فيه عينان قد سبحتا فى الدموع ، فتألم لهـــذا المنظر وأخذ يحدثها عن نفسها وعن حياتهـا متسائلا . أى أفراح تعرفين وأى ماض يمكنك أن تسترجعيه ..

فهزت الأم رأسهـا فى حزن وأحست أن شيئاً غريباً ، شيئا مجهولا ـ مزيجا من الحزن والفرح ـ يضطرب له قلبها ـ لقد كانت هذه المرة الأولى التى تسمع فيها الحديث عن نفسها ، عن حياتها ، فأيقظ هذا الحديث أفكارها الراقدة المظلمة وأثار فيها نوعا من السخط والثورة . السخط على شبابها القاتم البعيد . والثورة على حاضرها

البائس الثقيل . لقد طالما تحدثت عن الحياة مع جاراتها ، تحدثت عن كل شيء ، ولكنها كانت تشكو دائما من حياتها . ما من أحد استطاع أن يفسر لها لماذا كانت الحياة ثقيلة قاسية هكذا ؟! والآن قد جاءها ابنها يحدثها عن حياتها وعن بؤسها ، فقفز قلبها ينصت وينظر إلى عينيه ووجهه وشفتيه . وداخلها شعور الفخر والكبرياء بابنها الذى فهم حياة أمه واستطاع أن يتحدث عن آلامها وأمانيها حديث الشاعر العليم ! !

وماذا تريد أن تعمل ؟

أدرس وأعلم الآخرين . يجب علينا ـ نحن العمال ـ أن ندرس ونتعلم ـ يجب أن نفهم لماذا كانت حياتنا قاسية هكذا ؟ !

فارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة قاتمة وإن كانت الدموع لم تزل تترجرج بين تجاعيد وجهها ، واستولى على قلبها شعوران متغايران : شعور الكبرياء بابنها الذى أراد الخير لكل الناس . والأسف ـ غير الأرادى ـ على شبابه لأنه وطن نفسه على منازلة الحياة وحده الحياة التى اعتادها جميع الناس ومن بينهم هى . وهمت أن تقول له وماذا أنت صانع يابنى العزيز . إن الناس يجرفونك فى طريقهم ، وسرعان ماتتلاشى أمامهم ، ولكنها خشيت أن تشوه

هذا الجمال ـ جمال السرور والفرح بابنها الذى لاح لها اليوم شخصاً اخر .

رأى بافيل الابتسام فى شفتيها ، والانتباه فى وجهها والحب فى عينيها ، وأدرك أنه استطاع أن يقنعها بما يعتقد ، فأحس بكبرياء الشباب واطمأن إلى نفسه ، فأخذ يحدثها عن أولئك الرجال الذين أرادوا الخير لجميع البشر ، فجاء أعداء الحياة يطاردونهم كأنهم وحوش ضارية يزجون بهم فى السجون ويشردونهم فى أقاصى البلاد ويلقون عليهم أشق الأعمال !

فصمتت الأم طويلا . وأخيراً قالت والدموع تتحدر على خديها « ستهلك يابنى ! » فأخذ بافيل يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ثم قال :

« لقد عرفت الآن ما أنا قادم عليه . وإنى لأتوسل اليك يأماه اذا كنت تحبيننى ـ ألا تقفى فى طريقى . فصاحت الأم باكية :

« عزيزى ! عزيزى . كان الأفضل أن لم أكن عرفت من أمرك شيئا ..

* * *

مرت الأيام والشهور وبافيل يعيش مع والدته وكأنه غريب

عنها . ولـكن شيئا جديداً قد طرأ عليه ، فقد تعرف إلى أصـدقاء كانوا يعملون معـه فى المصنع ؛ وكانوا يختلفون الى منزله كل يوم « أحد » وهو يوم عطلتهم .

ماهذا الـكتاب ؟ جيولوجيا . . سأل أحد الزملاء .

لسنا فى حاجة الى مثل هذا الـكتاب . ان الفلاح لايريد أن يعرف أن الارض قد أتت من ذلك المكان الذى تجرى فيه الآن . لايهمه إذا كانت ثابتة أو أنها تدور ، يمكنك أن تخبره أنها عالقة بحبل مادمت تمده بالطعام ، ويمكنك أن تثبتها بالأجواء السابعة مادامت تعطيه قوت يومه .

وماهذا . تاريخ الرق ؟

وهل هو عن بلادنا ؟

فاجابه بافيل نعم إنه يحتوى على إلمامة عامة عن الرق عندنا أيضاً.

فأعاده الزميل الى مكانه وقال انه فى غير أوانه . فسأله بافيل وهل تملك أرضاً ؟

فأجابه الرفيق . نعم ، لدينا قطعة أرض نحن الأخوة الثلاثة — ولـكنها رمال تصلح لتنظيف النحاس وتعجز عن اطعامنا — لقد تركت الارض . انها لاتعطى شيئا ، بل تشغل الانسان وتشل يديه

فى غير طائل .

ولـكن عظامك قوية ،

فقال الرفيق : ان الفلاح يقف على قدميه فى ثبات وعزم أكثر من الصانع ، فهو كالعصفور ليس له وطن خاص . اليوم هنا وغداً هناك . حتى زوجه لا يمـكنها اللحاق به فى بقعة معينة . ان الفلاح يريد اصلاح حاله دون أن يبتعد عن موطنه .

ثم أخـذوا ينشدون الاناشيد الوطنية فى صوت قوى فتدوى كلماتهم وتجلجل فى ذلك المـكان الصغير ـ فقال أحد الرفاق .

لقد آن لنا أن نخرج الى الشوارع ننشد هذه الأناشيد

فأعجب الكل برأيه وتمايلوا على بعضهم يضحكون ويمرحون.

ثم انبرى اخر وقال « علينا أيها الرفاق أن نكتب الى اخواننا العمال فى فرنسا وانجلترا والمانيا . دعهم يعلمون أن لهم اخوانا فى بقاع روسيا البعيدة يدينون بدينهم ويعملون عملهم ويبتهجـــون لانتصارهم وظفرهم ويألمون لمصابهم وبؤسهم . »

فتهللت وجوه الرفاق بشرا وأخذوا يفكرون فى رفاقهم من الانجليز والفرنسيين والطليان والالمان ، وعن العمال فى كل الاقطار كأنهم أصدقاء أو اخوة ، فى هذه الغرفة الصغيرة انبعث أول صوت

بالالفة العالمية . بالتضامن بين عمال العالم أجمع . فبعث هذا الصوت في قلب الام أملا وعزما . فقالت ما أعجبكم من أناس . أكلهم رفاقكم — الأرمن واليهود والنمسويون — إنكم تتكلمون عن الكل كأنهم إخوة لكم . تألمون للكل وتفرحون للكل .

نعم لاجل الكل أيتها الأم يجب أن نعمل ! للكل يجب أن نعيش ! إن العالم كله ملك لنا ! ملك للعمال ! انا لا نعرف شعبا ولا جنسا ! انا نعرف رفاقا أصدقاء وأعداء الداء ، فكل العمال أصدقاؤنا وكل الاغنياء وأصحاب السلطان أعداؤنا . هذا مايشعر به الألماني والفرنسي والايطالي ، كلنا اطفال لأم واحدة تربطنا جميعا روابط الاخوة

لقد نمت فينا هذه العقيدة . انها تدفىء قلوبنا الآن . تمدها بالحرارة بدل الشمس ، انها الشمس في سماء العدالة ، وهذه الشمس تسكن قلب العامل . ومهما يكن، ومهما يكن اسمه — الاشتراكى — — فهو أخ لنا الآن والى الابد ، في كل العصور !

لقد استحوذت تلك العقيدة على قلب بافيل فأسلم لها قلبه وألقى إلى الشعب ذلك القلب المشتعل الذى ينيره الايمان والعزم، فقام يخطب فيهم

« أيها الرفاق ـ ثم أستمد من هذه الكلمة ـ الرفاق ـ قوة وحماسة ـ

نحن الشعب الذى بنى الكنائس والمصانع وصهر الحديد وصنع الأسلحة وسك النقود وعمل اللعب والادوات . نعم ـ إننا تلك القوة الحية التى تطعم العالم وتسليه من المهد إلى اللحد . لقد كنا دائماً السباقين إلى العمل والمتخلفين فى الحياة ! فمن هو ذا الذى يهتم بنا؟ ومن هو الذى يبغى لنا الخير.ومن ينظر الينا كمخلوقات بشرية ؟ لا أحد ! ! »

فدوى صوت بعيد يردد لا أحد ! لا أحد !

فاستجمع بافيل قوته وملك زمام موقفه وأخذ يتكلم فى أسلوب أبسط وصوت أهدأ . فتدفع الشعب إليه كتلا متراصة مشرئبة شاخصة تلتهم ما يقول فى صمت ولهفة !

لن نصل إلى حياة أسعد حتى نشعر أننا رفقاء كأسرة واحدة قوية الأواصر شديدة الارتباط مدفوعة برغبة واحدة هى النضال من أجل حقوقنا ؟

فصاح واحد من الشعب « انصرف إلى عملك ؟ »
فأجابه ثان : لا تقاطعه

فأجابه ثالث : انه اشتراكى وليس بمعتوه .

فأجابه الثانى : انه شجاع يتكلم فى جرأة واقدام .

« لقد جاء الوقت الذى ندافع فيه عن أنفسنا . يجب أن نوقن جميعاً أنه ما من أحد الا نحن يستطيع مساعدتنا . الواحد لاجل الكل ، والكل لاجل الواحد ـ هذا هو قانوننا اذا أردنا أن نسحق العدو .

سيأتى ذلك الوقت الذى يجد فيه الناس سرورهم وبهجتهم فى صحبة الآخرين عندما يصبح كل واحد نجما هادياً لاخيه وينصت كل واحد الى رفيقه كما ينصت الى الموسيقى ، وسيتحدثون بقلوب صريحة نقية بعد أن يموت الحقد وتصبح الحياة خادما للانسان ، سنعيش جميعاً فى الحق والحرية والجمال . وسيكون أفضلنا أكثرنا حرية لانه يكون ينبوعا للجمال .

ولاجل هذه الحياة أتأهب لكل شىء : أمزق قلبى عند أول نداء .

دعوا الموت يكون طريقاً للحياة . أى يجب أن نموت حتى يستطيع غيرنا أن يبعث الى الحياة من جديد .

دعوا الآلاف تموت ، حتى تبقى الملايين .

أجل من اليسير أن نموت ، ولـكن دعوا الناس يعودون الى الحياة ثانية ، دعوهم يثورون .

أيها الرفاق . لقـد أتت الساعة التى نترك فيها هـذه الحياة ـ حياة الطمع والـكراهية والظلام ، حياة الضيق والـكفاف ، هـذه الحياة التى ليس لنا فيها مكان ، حيث لا تعود فيها مخلوقات بشرية

فتزاحمت الجماهير حوله واشتد زحفها عليه . أما الام فقدكانت عيناها عالقتين بعينيه القويتين اللتين ترميان بوقد الشرر .

أيها الرفاق .

لقد عزمنا على أن تعلن من نحن ، وها نحن أولاء نرفع العلم اليوم . علم العقل والحق والحرية . وهأنذا أرفعه الان .

ثم خفق العـلم فى الفضاء وتدافعت اليه جموع الشعب فـلم تعد الام ترى الا طرف العلم يرفرف بعيداً .

وأخيراً هاجمتهم كتائب البوليس فتفرقت جماهـير الشعب وقبض على أولئك الذين ينشدون أناشيد الحق والحرية .

ثم مضى الناس ينظرون الى الام فى حزن واجـلال يفسحون لها الطريق حتى وصلت الى منزلها .

*

ستة وعشرون.. وواحدة

للكاتب الروسى العظيم ماكسيم جوركى

كنا ستة وعشرين — ستة وعشرون آلة حية — قد حبسوا فى حجرة رطبة يعجنون الكعك والبسكويت من الصباح إلى المساء وكانت نوافذ غرفتنا تشرف على حفرة عميقة مملوءة بالطوب، خضراء من الرطوبة ، وكانت ضلف النوافذ مغطاة من الخارج بطبقة من الأسلاك الحديدية ، أما الالواح الزجاجية فكانت تحجز ضوء الشمس عنا لكثرة ما علاها من ذرات الدقيق .

كان سيدنا يغلق النوافذ بالأسلاك الحديدية لكى لا يعطى أحداً من السائلين الفقراء أو زملائنا الذين كانوا يتضورون جوعا لقمة من هذا الخبز .

وكان يدعونا برقيق المطبخ ويقدم لنا الأمعاء العفنة بدل اللحوم الطازجة . فأصبحت هذه الحياة التى كنا نحياها فى ذلك

القفص الحجرى تحت ذلك السقف المغطى بالهباب وبيوت العناكيب حياة ثقيلة ضيقة تافهة . فما أشد بؤس الحياة فى تلك الجدران السميكة التى تعلوها القاذورات والرطوبة .

كنا نستيقظ فى الساعة الخامسة من صباح كل يوم دون أن نكون قد استمتعنا بشىء من الحياة ولو بالنوم فى الخارج — إذ كنا ننام فى سجننا الذى نعمل فيه — ثم نجلس الى الموائد ونبدأ فى صنع البسكويت من العجين الذى يكون قد أعده زملاؤنا ونحن نيام . ثم نقضى طول يومنا حتى الساعة العاشرة مساء — البعض يهتز الى الامام والى الخلف حتى لا يستسلم للنوم — والبعض الآخر يمزج الدقيق بالماء — هكذا كنا نقضى يومنا فى تعب وحلم بينما الماء الغالى يتصاعد منه البخار المتكاثف ومجرفة الخباز تقرع آذاننا فى شدة وسرعة وهى تقذف قطع العجين المخبوز .

كانوا يلقون قطع الخشب من الصباح الى المساء فى ذلك الاتون المستقر فكنا نرى انعكاسات اللهب الحمراء على جدران المخبز تتلوى فى صمت كأنها تسخر منا وقد لاح لنا ذلك الاتون الكبير كأنه رأس أحد المردة أو أبطال القصص الخرافية يخرج من الارض فاغراً فاه الواسع المتأجج ناراً وسعيرا .. فيصلينا بها وينظر الى عملنا

الدائم الرتيب نظرة سوداء مرعبة حتى اذا ما سئم النظر إلينا أشاح بعيدا عنا مزدريا الحكمة الارضية .. مضينـا فى هذا العمـل الدائم نعانى عذاب التراب والقاذورات التى تعلق بأرجلنا من فناء المصنع والبخار الكثيف الخانق الذى يتصـاعد من الأوانى ونحن نعجن العجين ونصنع البسكوت الذى كنا نمزجه بعرقنا حتى كرهنا عملنـا أشد الكره ..

لم نذق ذلك الذى كنا نصنعه بأيدينا ونخلطـه بعرق جباهنا . بل كان نصيبنا الخبز الاسمر . كنا نجلس الى مائدة طويلة متقابلى الوجوه . تسعة أمام تسعة ثم نحرك أذرعنـا وأصابعنـا طول الوقت حتى اعتدنا هذه الحركة فلم نعد نحس بها . وكان من أثر هذه المواجهة المستمرة أن أصبحنا نعرف أنفسنـا فى وجوهنـا حتى كان كل منـا يعرف زميله بالتجاعيد التى يراها فى وجهه ..

لم يكن لدينا شىء نتحدث عنه فاعتدنا أن نتحدث عن لا شىء. وهكذا كنا نقضى طول وقتنا صامتين ما لم يحدث شجار بيننـا ـــ ولكن هذا الشجار لم يكن حقيقيا فكيف يتشـاجر أنصاف الموتى . ولكن الصمت عذاب شديد وألم لا يحتمله أولئك الذين قالوا كل شىء ولم يجدوا شيئا يقولونه وان كان سهلا هينـا على أولئك الذين

لم يحاولوا أن يسمعوا أصواتهم . ومع ذلك فقد كنا نغنى أحيانا عندما كان يضيق أحدنا بعمله فيصرخ فجأة كأنه جواد منهك ليروح عن نفسه بعض أعباء الحياة .

كان أحدنا يبدأ الغناء فيستمع إليه الباقون ولكن صوته سرعان ما يذوب ويتلاشى تحت هذا السقف الثقيل كما تموت نار المعسكر فى ليلة الخريف القاتمة .. ثم ينضم اليه الثانى فيدوى الصوتان فى خفة وحزن ويصعدان إلى العلا هروبا من تلك الحرارة الخانقة فى تلك الحفرة الضيقة ثم تنبعث فجأة أصوات عدة وتأخذ النغمة فى التضخم والانتفاخ كأنها موجة ثم تزداد قوة ودويا حتى تغمر محيط السجن فلا نلبث أن نشترك جميعا نحن الستة والعشرين فى الغناء فتزدحم أصواتنا فى هذه الغرفة الضيقة ونحاول أن نفلت منها إلى الخارج فتصطدم النغمات بالجدران الحجرية السميكة فتعول وتصرخ وتثير فى قلوبنا النائمة التى خدرها الألم الممض الدفين وتفتح جراحنا الدامية من جديد فيتأوه المغنون فى حزن عميق ثقيل . وقد يقف أحدهم فجأة عن الغناء وينصت إلى أصوات زملائه ثم يعود فينضم إليهم ثانية ، وقد يصرخ أحدنا من الألم فتخرج آهة حزينة من أعماق قلبه ثم يمضى فى الغناء بعينين مقفلتين متخيلا موجة الصوت

الكثيفة المريضة كأنها طريق طويل تشرق عليه الشمس الزاهية وهو يقطعه سيرا ..

لا ينقطع لهب الأفران عن الترنح ومجرفة الخباز لاتني عن الاصطدام بالأرض والماء الغالى لا يقف عن الهمهمة وانعكاسات النار لا تفتر عن الارتجاف بالجدران والتهكم منا فى سر وصمت . أما نحن فلا نقعد عن الشكوى من هذا البؤس الثقيل الممض الذى لازم تلك المخلوقات الحية فحرمها الشمس وأذاقها الذل .

هكذا قضينا نحن الستة والعشرين فى تلك الحجرة من ذلك المنزل الحجرى الكبير حياة ثقيلة كأن الثلاث طبقات التى بالمنزل كانت تقوم على أكتافنا .

ولكن شيئا آخر بجانب الغناء كان لنا بمثابة ضوء الشمس المحرم علينا إذ كان فى الطبقة الثانية من المنزل مصنع للتطريز وكان من بين الفتيات العديدات اللواتى يعملن فيه فتاة فى السادسة عشرة من عمرها تدعى «تانيا» كانت هذه الفتاة تأتى كل صباح إلى النافذة الصغيرة وتدخل فيها وجهها الدقيق الجميل وعينيها الزرقاوين اللتين تشعان فرحا وحبا ثم تنادى بصوت موسيقى حنون أيها المسجونون المساكين ! أعطونى قليلا من البسكويت ! فنشخص جميعا بأبصارنا

الى مصدر الصوت الرقيق وننظر فى فرح . ولهفة الى ذلك الوجه الصغير الشبيه بوجه العذراء الذى يبتسم لنا فى سرور وبهجة .

ثم اعتدنا منذ ذلك الوقت أن نرى ذلك الانف الصغير يلمس زجاج النافذة والأسنان البيضاء الدقيقة تسطع بين الشفاه الوردية المنفرجة عن ابتسامة رقيقة . فكنا نندفع جميعا دفعة واحدة وقد يدوس أحدنا على قدم الآخر وقد يهوى أحدنا الى الارض فنمر عليه مسرعين الى الباب نفتحه فتدخل وضاءة لامعة مغتبطة كعادتها دائما ثم تقف أمامنا مائلة قليلا الى أحد جانبيها مبتسمة طول الوقت وخصل الشعر الكستنائى مدلاة على صدرها ونقف نحن التعساء القذرين ننظر اليها فى خشوع ورهبة .

كان الباب يعلو أرض الغرفة بأربع درجات فكنا مضطرين إلى رفع رءوسنا لنراها . ونحيها تحية الصباح ونخاطبها بلغة خاصة وكأن الكلمات كانت تأتينا من أجلها ومن أجلها فقط . فكان حديثنا معها أكثر رقة وأقل خشونة . وكان لنا أخلاق وعادات خاصة بها فقط فكان الخباز يتناول احسن أنواع البسكويت الناضج ويقذف به إلى حجر «تانيا» وهو يقول «احذرى أن تقعى فى مخالب صاحب المخبز» اذ كنا دائما نحتاط لها ونحافظ عليها فتجيبنا وهى ضاحكة وداعاً أيها

المساجين الصغار ثم تختفى كأنها فأرة صغيرة .

فنمضى فى الحديث عنها بعد رحيلها والسرور يملأ نا .فكنا نقول دائما الشىء الذى نقوله أولا وأخيراً .لانها ونحن وكل شىء حولنا كان دائما الأول والآخير . أنه لمن أشد الاشياء إيلاما للانسان أن يعيش فى مكان لا يتغير فيه شىء فأن لم يقتـــل فيه هذا روحه زاد فى آلمه وضيقه من جمود بيئته . كنا نتحدث دائماً عن النساء حديثاً بذيئاً و نتقول عنهن أقوالا خسيسة ولـكنا لم نسىء قط الى تانيا فلم يكن أحد منا يسمح لنفسه أن يتمادى فى الكلام كأن على فمه إصبعاً .بل لم نسمع أبداً نـكتة باردة من أحدنا . قد يكون هذا راجعا إلى أنها لم تـكن تمكث معنا طويلا اذ كانت نسطع علينا كأنها نجم يضىء فى السماء ثم يتوارى سريعا . وقد يكون راجعا الى رقتها وجمالها لأن كل شىء جميل يبعث على الاحترام والاجلال حتى من أغلظ الناس طبعا . وقد يرجع الى شىء آخر . .

ومع أن مصنعنا الشبيه بالسجن قد جعل منا حيوانات ضارية الا أننا كنا لا نزال بشرا نحس كالبشر فاننا لا نستطيع أن نعيش دون أن نعبد شيئا . لم يكن لدينا أفضل منها ولم يهتم أحد بأولئك الذين يعيشون فى ذلك القبـاء إلاها . حتى أصبحنا نعدها شيئا

شيئاً نملكه ورأينا واجبنا يحتم علينا أن نقدم لها بسكوتا ساخنا كل صباح حتى أصبح هذا قربانا يوميا لمعبودنا ثم أصبح هذا القربان مقدسا وأخذ حينا يزداد يوما بعد يوم . لم نكتف بما كنا نقدمه لها من البسكويت بل كنا نزودها بالنصائح كأن ترتدى ملابس أكثر إدفاء ولا تجرى مسرعة فوق السلم ولا تحمل كميات كبيرة من الحطب . أما هى فكانت تستمع الى نصحنا وتجيب ضاحكة وان لم تعمل به . ولكن هذا لم يغضبنا اذ أن غرضنا كله كان إيقافها على مقدار اهتمامنا بها . وقد كانت تكلفنا أحيانا أن نقضى لها حاجة كأن نفتح لها مثلا باب الحجرة الثقيل لتقطع الخشب . فكنا نقوم بهذا مسرورين بل فخورين . ولكن حدث مرة أن سألها أحدنا أن تصلح له قميصه فشاحت بوجهها مزدرية وقالت ثم ماذا بعد ذلك ؟ أتظن أن ليس لدى عمل أفضل من هذا ؟ فضحكنا من رفيقنا الغبي ولم نسألها شيئا بعد ذلك

لقد أحببناها . واذا قلنا هذا فقد قلنا كل شيء . ان الانسان يحتاج دائما لأن يضع حبه فى شخص . وقد كنا مضطرين أن نحب ثانيا لأنه لم يكن لدينا غيرها يحب . وكان يحدث أحيانا أن يتساءل احدنا . لماذا نهتم بهذه الصبية كل هذا الاهتمام ؟ ماذا وراء

كل هذا ؟إيه اننا نثير ضجيجا .أما ذلك الشاب الذى كان يجرؤ على أن يلقى مثل هذه الاسئلة فكان سرعان مايعترف بخطئه . انى استطيع أن أقول اننا كنا فى حاجة الى أن نحب . ولقد وجدنا ما كان يعوزنا وأحببناه وان ما أحببناه نحن الستة والعشرين — كان مصوننا مقدسا لأنها كانت معبدنا الطاهر وكل من وقف فى طريقنا كان عدوا لنا . ا.ه مما لاشك فيه أن الناس يحبون غالبا من ليس جميلا حقا ولكننا نحن الستة والعشرين كنا نحب أن يرى الناس أن ما نراه نحن عزيزا يرونه هم مقدسا طاهرا ...

كان بجانب مصنع البسكويت مخبز يملكه سيدنا يفصله عن مصنعنا جدار وكان بين عماله أربعة من الخبازين اعتادوا أن يتطاولوا علينا ويفاخروا بعملهم بدعوى أنه أخف وأنظف ولهذا كانوا يعتقدون أنهم أفضل منا فلم يزوروا مصنعنا بل كانوا يسخرون منا كلما التقوا بنا فى فناء المنزل كذلك نحن لم نكن نزورهم نزولا على أمر سيدنا الذى نهانا عن ذلك خوف أن نسرق اللبن . والحقيقة أننا لم نكن نحبهم لاننا كنا نغار منهم فقد كان عملهم أخف من عملنا وكان أجرهم أكثر من أجرنا وطعامهم خيرا من طعامنا ومصنعهم فسيحا مضاء دائما — وكانوا جميعهم أصحاء البدن أما نحن فقد كنا مصفرى الوجوه شاحبي

الالوان فكان ثلاثة منا يشكون ألم المفاصل وكثيرون مصدوزين وقد أقعد الروماتزم أحدنا حتى أنه لم يستطع السير ـ أما هم فكانوا يرتدون معاطف جـــديدة ويلبسون أحذية نظيفة ثم يذهبون الى المتنزهات بينما نحن نرتدى ملابس أفضل قليـلا من الخرق البالية القذرة ونلبس أحذية كالخف بتعقبنا البوليس ولا يسمح لنا أن ندخل المتنزهات . فكيف نحب هؤلاء الخبازين ؟ ثم سمعنا أن رئيسهم قد طرد بسبب السكر وعين شخص آخر بدله وكان هـذا الشخص جنـــــديا يرتدى صديرية غالية ويحمل أحيانا سبيكة ذهبية فكنا شغوفين لان نرى هذا الرجل ومن أجل هذا كنا نتبادل الذهاب الى فناء المنزل الواحد بعد الاخر . .

ثم جاء الينا مرة وركل الباب بقـدمه ففتحه ثم تركه مفتوحا وقدم الينا وهو يبتسم ثم قال « الله معكم ؟ انى أحييكم أبنائى ! » ثم اندفع من الباب هواء باررفى شكل السحب الدخانية والتف بأقدامه فوقف فى مكانه ينظر الينا وقـد ظهرت أسنانه الصفراء القوية من بين شواربه المفتولة . أما حلته فقـد كانت زرقاء موشاة بالازاهير وعليها علامة لامعة قد صنعت أزرارها من الجواهر الصغيرة الجميلة ربطت بها السبيكة الذهبية .

لقد كان ذلك الجندى جميل الطلعة طويل القامة قوى العضلات مورد الخـدين وكانت عيناه الواسعتان الوضاءتان تشعان طيبة وصفاء واخاء، وعلى رأسه قبعة بيضاء وعلى قدميه حذاء لامع نظيف.

فسأله رئيسنا فى أدب وهدوء أن يغلق الباب. فأجابه الى طلبة وأخـذ يلقى علينا الاسئلة عن سيدنا فأخذ كل منا يجيبه بما يشعره بقسوته فقد كان يمتص دماءنا ويسيء معاملتنا ويذيقنا العذاب ألوانا، أخبرناه بكل شيء أردنا أن نقوله عن سيدنا ولكن كان من المحال أن نكتبه، فأصغى الجنـدى الينا وفتل شاربيه ورمقنا بنظرة رقيقة ثم قال فجأة « انى أظن أن الفتيات الصغار هنا. فضحـك بعضنا فى ادب وقطب البعض الاخر فى وجوم وغيظ ثم صاح أحـدنا قائلا « كانت لدينا دستة منهن هنا ـ فأجاب وهو يرمش بعينيه. أتسرون عن أنفسكم. فضحكنا ثانية ضحكا ليس عاليا جدا بوجوه يعلوها بعض الاضطراب وقد حاول كثير منا أن يقول للجندى انهن كن فضوليات مثله ولـكن لم يجرؤ أحد أن يقول هذا. ثم قال الجندى فى ثقة وصدق وهو ينظر إلينا « نعم. طبعا. إنه من الصعب عليكم. ينبغى لـكم أن تـكونوا فى حالة هانئة. لا كما أنتم الآن. إنـكم مغبونون. هناك طريقة تسترعى النظر هى منظر الشيء إنكم فاهمون

معنى كلامى إن النساء كما تعرفون يحببن الرجـل الانيق . يجب أن يكون كل شيء نظيفا كذلك تحترم المرأة القوة . والآن ماذا ترون فى ذلك الذراع . إنه — ثم أخرج ذراعه الأيمن من جيبه وشمر عن ساعده حتى المرفق وأراه لنا — لقد كان قويا أبيض وضاء يعلوه شعر كسبائك الذهب الرقيقة . كذلك الساقان والصدر — إيه — كما أن الرجل يجب أن يـكون حسن الهندام . والآن انظروا الى . ان كل النساء تحبنى . انى لا أدعوهن ولا أغمز لهن بطرف عينى . انهن يأتين من تلقاء أنفسهن ويرتمين على عنقى بالدستات . ثم جلس على احدى حقائب الدقيق وأخذ يقص علينا كيف أحبته النساء وكيف أراق فى نظرهن . ثم خرج وأغلق الباب خلفه وبقينا صامتين وقتا طويلا نفـكر فيه وفى قصص غزله الملفقة ثم عدنا الى حديثنا القديم فاتفق الـكل على أنه ظريف جداً . لقد كان صريحاً مرحا . لقد جاء وجلس معنا وتحـدث الينا كما لو كان واحداً منا . لم يأت أحد من قبله ويتحدث الينا بتلك الروح الاخوية الصادقة . ثم تحـدثنا عنه وعن جولاته الناجحة المستقبلة مـع فتيات مصنع التطريز اللواتى ولين منا فرارا ويلوين شفاههن احتقارا ويشحن عنا كلما وقعت بصارهن علينا ويسرن فى طريقهن كأنهن لم يريننا . أما نحن فقد

كنا ننظر اليهن اذا ما قابلناهن فى الفناء أو سرن بجوار نافذتنا مرتديات ملابس الشتاء كالطواقى المصنوعة من الفراء والقبعات الصيفية المزينة بالازهار ولكنا كنا نتحدث عنهن حديثا لو سمعنه لاشحن عنا غاضبات ساخطات. ولكن ماذا يكون من أمر «تانيا» الصغيرة انى أرجو ألا يوقعها فى شركه. قال هذا رئيسنا فى صوت حزين. ثم سادنا صمت شامل فقد عملت فينا هذه الكلمات. لقد كدنا ننسى كل شىء عن تانيا. لقد منعها الجندى عنا بوجهه اللطيف فنشب بيننا نزاع شديد فقال بعضنا ان «تانيا» لا تنزل الى هذا الدرك وقال آخر انها لا تستطيع الوقوف أمام الجندى وقال فريق ثالث «يجب علينا اذا أبدى الجندى أى ميل الى إغواء «تانيا» أن نمزقه اربا. وأخيرا قر رأينا على أن نرقب الجندى و«تانيا» ونحذر الفتاة منه وبذلك حسم النزاع.

ثم مضى شهر وكان الجندى يخرج مع فتيات المصنع وكثيرا ما كان يزورنا فى عملنا يذكر لنا شيئا من انتصاراته ومغامراته ثم يفتل شاربيه ويمصمص بشفتيه.

أما «تانيا» فقد كانت تزورنا كل صباح تطلب البسكوت وكانت دائما مرحة طروبة فلما أردنا أن نحذرها من ذلك الجندى أخذت

ترميه بهــــذه الالقـــــاب . العجـــل . المحملق العينين وغيرها من الاسماء التى تثير الضحك فاطمأن خاطرنا الى ذلك فقد كنا نخورين بفتاتنا الصغيرة عندما كنا نرى فتيات المصنع عالقـة بالجندى . وقد كان تسامى « تانيا عليه موضع اهتمامنا جميعاً فازددنا حبا لها وأخذنا نقابلها كل صباح فى ابتهاج وفرح ...

وفى ذات يوم جاءنا الجندى فى حالة سكر ثقيلة وأخذ يضحك ويقهقه فسألناه عن السبب فقال « لقد تشاجرت فتاتان من أجلى . ماأقسى نظراتهما الواحدة إلى الأخرى. ها. هاها. لقد أخذتا تتخادشان وتتضاربان وأنا أكاد أنفجر من الضحك ـ لماذا لا تتشاجر النساء فى اعتدال ؟ لماذا تخدش الواحدة الاخرى دائما ـ ايه ؟ ...

كان جالسا على المقعد صحيح الجسم . نظيف الثياب . منشرح الصدر يزأر بالضحك . أما نحن فقد كنا صامتين لأنه لم يكن مقبولا فى هذه اللحظة ثم قال « لا . لا أستطيع أن أخرجه. لا . إنه مضحك على أن أحرك أهدابى فسرعان ما تقع صريعـة . ثم رفع ذراعيـــه البيضاوين المغطيين بالذهب اللامع ثم خفضهما إلى ركبتيه فى فرقعـة عالية ونظر الينا مندهشا كما لو كان هو نفسه قد التـاث عليه الأمر من معاملته اللطيفة للنساء — وكان وجهه الغليظ الأحمر يشع سروراً

ورضى واستمر يطقطق بشفتيه . فجر رئيسنا مجرفته الى الموقد فى غضب وقال متهكما لأن توقع شجرة صغيرة لا يدل على قوة ولكن لأن توقع شجرة من الصنوبر فان هذا شىء آخر فقال الجندى «أتعنينى بهذا الكلام؟ انه يعنيك . فظهر الغضب على وجه الجندى فقد كان لا يظن نفسه لاشىء الا فى هذه النقطة وهى قدرته على كسب النساء . ربما كان بدون هذه الصفة لا يشعر فى نفسه أنه انسان اذ لم تكن الا هذه الصفة الوحيدة هى التى كانت تشعره أنه انسان حى .

هناك كثير من الناس ينظرون الى مرضهم سواء فى الجسم أو فى الروح كأنه أثمن وأحسن شىء فى حياتهم فانهم يرتضعونه فى حياتهم الأولى ويعيشون فيه فقط وهم وان كانوا يقاسون منه كثيرا إلا أنهم يعيشون عليه . وهم يضيقون به ويشكون الى غيرهم من الناس لكى يكسبوا عطفهم ويسترعوا انتباههم . فهم يستخدمونه كوسيلة لنيل العطف وبدونه لا يساوون شيئا . فان شفيتهم من هذا الداء فسيصبحون تعساء لأنك بذلك تكون قد جردتهم من الوسيلة الوحيدة للحياة . فيقفون خاوين . وقد تشقى حياة انسان الى هذه الدرجة حتى يضطر على غير إرادته إلى أن يتسامى بالرذيلة ويعيش بها ويعلق عليها وجوده إن مثل هؤلاء الناس لا يقال عنهم إنهم

واقعون فى الرذائل بمحض المرض . فاستاء الجنــدى لحديث الخباز وجأر بصوت عال

— هيا . تكلم . من

فالتفت اليه الخباز حالا وقال . أتكلم . إيه ؟!

— نعم ! حسن !

— أتعرف تانيا ؟

— حسن !

— حسن . فدونك هى ! حاول أن تصطادها !

— أنا؟

— أنت ؟ .

— يوه . هذا لا شىء

— دعنا نرى

— سترى . ها . ها . ها !

— أتنظر اليك

— أتركنى شهرا !

— يالك من جندى فشار .

— أسبوعين . سأريك.من تكون هى ؟«تانيا» الصغيرة أيوه!

— والآن أخرج وسر فى طريقك

— إنى أقول . أسبوعين وينتهى كل شىء . مسكين أنت

— انى أقول . أخرج

ثم اشتد غضب خبازنا حتى صار كالوحش الضارى فجذب مجرفته فتراجع الجندى بعيدا مذعورا ثم نظر الينا فى صمت وقال متوعدا حسنا . ثم مضى ....

أما نحن فقد ظللنا أثناء النزاع صامتين لأننا كنا أكثر تفكيرا فيها من الكلام عنها ولكن عندما مضى الجندى هبت عاصفة من الأصوات فقال أحدنا للخباز

انه عمل حسن الذى قمت به يا يول

فأجابه الخباز غاضبا . امض فى عملك .

لقد شعرنا أن الجندى سيهجم على « تانيا » وأن « تانيا » فى خطر . شعرنا بهذا ولكننا كنا فى نفس الوقت نتحرق شوقا لما يحدث أتقف « تانيا » ثابتة أمام الجندى فصاح معظمنا واثقا من أن تانيا الصغيرة ! ستصمد له !

لقد تسلط علينا جميعا شوق خائف أن نضع صلابة معبودنا الصغير فى بوتقة الاختبار وكان كل منا يثبت لأخيه

فى شدة وانفعال أن معبودنا الصغير قوى لا يلين وسيخرج ظافرا من المقابلة ـ ومنذ ذلك اليوم بدأنا نحيا حياة خاصة ـ فكنا نتشاجر مع بعضنا كما لو كنا قد أصبحنا أكثر تعقلا وأقدر على التحدث عن ذى قبل ـ لقد ظننا أننا سننازل الشيطان فى الملعب وأن الرهينة على ذلك هى (تانيا) فعندما سمعنا أن الجندى أخذ يطارد تانيا الصغيرة تألمنا لذلك جميعنا وأصبحت حياتنا غريبة حتى اننا لم ندرك أن سيدنا قد انتهز فرصة استثارنا وذهولنا فأضاف أربعة عشرة قطعة من العجين الى عملنا اليومى ـ

لم نقعد عن العمل طول اليوم ولم يغب اسم تانيا عن ألسنتنا طول العمل ننتظرها كل صباح بنوع من القلق والشوق غريبين ـ

ولكن بالرغم من ذلك لم نقل لها كلمة عن النزاع ولم نوجه لها سؤالا بل كنا نظهر لها توددنا وحبنا القديم وان كان قد تسرب الينا شىء جديد يخالف شعورنا الأول لتانيا تماما — كان هذا الشىء الجديد قلقا لتعرف مصيرها قلقا حادآ باردا كالسكينة المصنوعة من الصلب ـ

قال رئيسنا ذات صباح وهو يبدأ العمل ـ لقد جاء الوقت ـ فهم الكل هذا تمام الفهم ولكننا ارتجفنا وعرانا الاضطراب ـ ثم

مضى الخباز فى كلامه — أنظروا اليهــا جيدا — ستكون هنا حالا — فقال أحدنا فى اشفاق وشوق كما لو لم تر عيوننا أى شيء آخر

ثم دار بيننا نقاش عاصف قوى . فقد كنا فى ذلك اليوم عازمين على تعرف نظافة ذلك الاناء الذى وضعنا فيه أثمن ما لدينا ..

وشعرنا جميعنا فى ذلك الصباح لأول مرة أننا كنا نلعب لعبة عظيمة حقا وأن هذا الاختبار — اختبــار الطهر والقــداسة — سيلاشيها تماما بمقدار تعلقنا بها .

لقد سمعنا فى الأيام الاخيرة أن الجندى دائب على اضطهاد تانيا ولكن لم يجرؤ أحد أن يسألها عن ذلك أو عن عــلاقتها به أما هى فقد كانت تجيء كعادتها بانتظام كل يوم تأخذ بسكوتهــا وتمضى . ثم سمعناهــا تنــادى فى ذلك اليوم أيها المساجين الصغار لقد جئت ..

فتزاحمنــا الى لقائها وعنــدما ولجت باب المصنع ذهبنا اليهــا صامتين على غير عادتنا وحدقنا فيها بعيوننا ولـكننا لم نعرف ماذا نقول لها وماذا نسألها . فوقفنا أمامها صامتين متجهمــين . فدهشت لهذا الاستقبال غير العادى ولاحظنا عليها ذلك الاضطراب وهى تتململ فى مكانها فاخذنا نسألها فى أصوات حزينة منكسرة . ما شأنك وكيف حالك . قال هذا رئيسنا وعيناه مثبتتان فيها .

أنا؟ ماذا تعنون ؟

أوه . لا شيء . لا شيء

هيا أعطوني البسكويت . أسرعوا أسرعوا ! !

لم نتحدث معها في ذلك اليوم . ثم قال الخباز وهو يديم النظر اليها انك مستعجلة ثم أشاحت عنا وانسلت مسرعة . . فأمسك الرجل بمجرفته واتجه الى الموقد وقال انها تعنى أنها مستعدة تماما له آه : ذلك الجندى النذل . الجبان . .

ثم ذهبنا كقطيع من الشياه نهز أكتافنا وجلسنا صامتين وأخذنا نعمل في اعياء ولغوب . فقال أحـــدنا أنحتمل هذا ! فصاح الخباز حسن . حسن . ما الفائدة من الكلام ! ثم استولى علينا اليأس والقلق

وفي الساعة الثانية عشرة جاء الجندى وكان كعادته أنيقا رقيق الحاشية يصوب إلينا نظره ولكننا استثقلنا أن ننظر إليه ثم قال وهو يضحك مزهواً حسنا أيها الكرام إنى سأريكم إذا أحببتم شيئا من القوة الحربية فقط إذا خرجتم معى إلى فناء المنزل ونظرتم إلى تلك الثقوب الضيقه أفاهمون !. فخرجنا ممسكا كل منا بذراع أخيه وعيوننا شاخصة الى تلك الثقوب التى كانت فى أعلا الجدار المشرف على الفناء . فلم

نلبث أن رأينا تانيا مقبلة بوجه شاحب مضطرب وهى تنزلق على الجليد والطين .

ثم جاء فى أثرها الجندى مهرولا يصفر وهو يسير نحوها .فأسفنا لأنهما كانا على موعد. كان يضع يديه فى جيوبه وكان شاربه يهتز . ثم سار قليلا ولكنه اختفى بسرعة وأخذ المطر ينهمر وأخذت قطراته تسقط على البرك والحفر وكان يوما رطبا أغبر ثقيلا متعبا وكان الجليد لا يزال يغطى السقوف وكتل الطين تفيض بها الشوارع . كان المطر يتساقط فى صوت حزين بطىء فلم نستطع أن ننظر طويلا فى هذا البرد والضيق والغضب من تانيا التى هجرت عبادها لأجل جندى عادى ولكننا انتظرناها كما ينتظر الجلادون فريستهم فى فرح مرعب .

ولم تمض لحظة حتى رأيناها تجرى وعيناها تشعان فرحاً وغبطة وشفتاها تنفرجان عن ابتسامة رقيقة — كانت تسير كأنها فى حلم تروح وتغدو لا تكاد تترك أثرا على الأرض . لم نستطع أن نتحمل كل هذا فى هدوء بل اندفعنا فى ثورة جنونية إلى الباب وصرخنا عاليـاً مهددين . فلم تكد تشعر بنا حتى ارتجفت ووقفت فى مكانها كأن قدميها قد ثبتا فى الارض ثم أحطنا بها وأخذنا نلقى عليها أحط أنواع السباب من فرط الحقد والغضب ..

أما تانيا فقد حارت فى موقفها ولم تدر أين تذهب. لقد كانت بيننا فيجب أن نصب عليها غضبنا كما نشاء . إنى لا أدرى لماذا لم نضربها لقد وقفت فى وسطنا وهى تتلفت برأسها يمنة ويسرة وتسمع إهانتنا البذيئة دون أن تجيب عليها . ثم أخذنا نرميها بالوحل وقارص الكلام — فغاب لون وجهها وأصبحت عيناها اللتان كانتا منذ دقيقة واحدة تشعان سرورا وفرحا مبهورتين ثابتتين وصدرها يخفق فى ثقل وشفتاها تضطربان فى خوف ووجل . أما نحن المحيطين بها فقد ثأرنا لا نفسنا . لقد كانت لنا وكنا نعدها أثمن شىء لدنيا ونمدها بما عندنا وان كان ذلك فتات خبز إلا أننا كنا ستة وعشرين وكانت هى واحدة . لذلك لم ندر ماذا نعمل لها . كيف نسىء اليها . لقد كانت صامتة طول الوقت تنظر الينا بعينين غريبتين كعينى الوحش الذى وقع فريسة للصيادين . ترتجف من رأسها الى قدميها لقد سخرنا منها وألقينا عليها سبابنا وجعلناها طعاما لنا .

ثم أحاط بنا الناس فسحب أحدهم تانيا من كمها وفجأة لمعت عيناها ثم رفعت يديها الى رأسها وأمرتهما على شعرها لتصلحه ثم حدقت فى وجوهنا وفاهت بهذه الكلمات فى صوت عال رزين .

أوه . أيتها الطيور البائسة يافريسة الفخ !

ثم تقدمت الينا فى غير تردد كأن لم نكن واقفين أمامها معترضين طريقها ومرت بنا دون أن تلتفت الينا كثيراً ثم قالت فى صوت عال

أيها القذرون ،

ثم سارت فى طريقها ثابتة الخطى ، جميلة، مزهوة . وبقينا نحن واقفين فى الفناء وسط الوحل والمطر ينهمر علينا فى ذلك اليوم الاغبر الذى لم تطلع فيه شمس .

ثم رجعنا الى جحرنا الحزين القاتم . ولم تعد الشمس تشرق علينا من تلك النافذة

ولم نعد نرى تانيا ثانية !



*